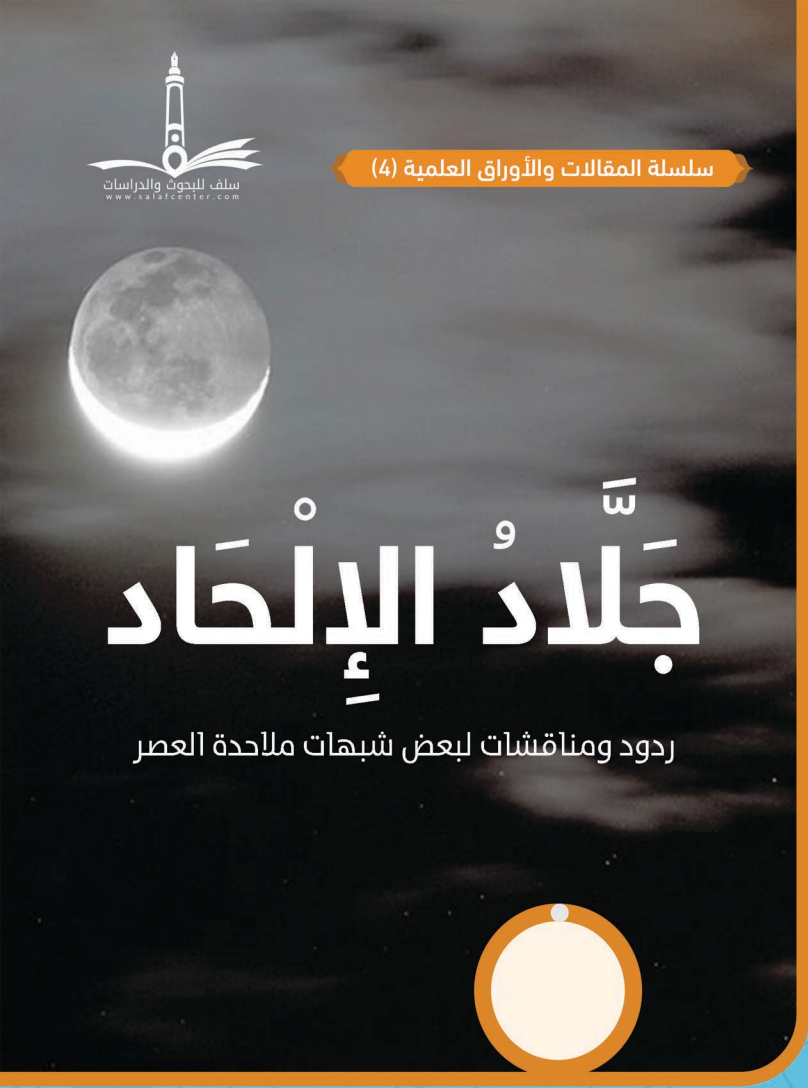

جَلَّادُ الإِلْحَاد

ردود ومناقشات لبعض شبهات ملاحدة العصر

تحرير وإشراف

د. محمد بن إبراهيم السعيدي

د. علي بن محمد العمران

دار سلف
للنشر والتوزيع

جَلَّادُ الإِلْحَاد

دار سلف
للنشر والتوزيع

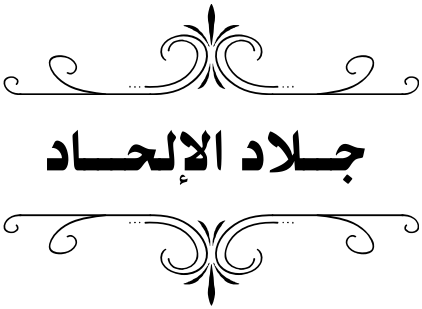
جـلاد الإلحـاد

جـــلاد الإلحـــاد

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

معرفة الله فطريةٌ بديهيةٌ ضروريةٌ، لا تحتاج إلىٰ نظر واستدلال، فهي في غاية الوضوح والبيان، ساطعة البرهان، ثابتة الأركان، إلا أن حولها تدور رحىٰ الإلحاد والملحدين، من غير حجة ولا سلطان مبين، ولا تفسير واضح مقنع للشعور الفطري الذي يلح في داخل كل إنسان.

فالإلحاد ليس أصلًا في البشرية، ولا يمكن أبدًا أن يكون أصلًا؛ لذلك لا يعرف التاريخ أمة من الأمم مسلمة كانت أو غير مسلمة مضت علىٰ الإلحاد؛ وإنما يسقط في هذه الهُوَّة أفراد يقلون أو يكثرون في كل عصر من العصور نتيجة لعوامل مختلفة، منها: انتحال الفلسفة التي لا تؤمن بالفطرة مصدرًا للمعرفة، وتستكبر من نسبة عظمة هذا الكون بتفاصيله إلىٰ واحد أحد، أو شيوع

المظالم والكوارث وعجز العقول الصغيرة عن تفسيرها والجمع بينها وبين حكمة الخالق ولطفه ورحمته.

وفي عصرنا الحاضر ظهرت هذه العوامل وغيرها؛ مما أظهر للملحدين صوتًا أوجب كبته بالحجة والبرهان، وكان لـ"**مركز سلف للبحوث والدراسات**" نصيب من هذا الجلاد مع أعداء أنفسهم وأعداء الله والمؤمنين، ممن حملوا علىٰ عواتقهم نشر الإلحاد وترويجه؛ فكانت هذه المقالات التي تضمنها هذا السفر "**جلاد الإلحاد**".

دلالة المُقدِّمَات الأوَّلِيَّة على وجود اللّه

انبهر كثير من الشباب بما لدىٰ الغرب اليوم من تقدُّم في جوانب من الحياة المادية، فافتتنوا تبعا لذلك بأفكارهم ومعتقداتهم، ولا عجب أن يُفتنوا بدينهم، وإنما العجب أن يستمرئوا ما يخالف بدائه العقول، ألا وهو إنكار وجود الله الخالق الذي خلق الإنسان من عدم، وما من شيء في الدنيا إلا وهو دالٌّ عليه سبحانه[1].

ومن هنا ظهرت الحاجة إلىٰ الحديث عن أدلة وجود الله سبحانه مع كونها واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار.

وقد أشرنا في مقالة (**المتكلمون وفطرية معرفة الله**) إلىٰ أن أدلة وجوده ﷻ ليست نوعا واحدًا، بل كثيرة ومتنوعة؛ كدليل الفطرة ودليل العقل، وكلها ممَّا استدلَّ به السلف[2].

---

(١) ممَّن عبّر عن خطورة هذه القضية الشيخ عائض الدوسري في رسالته الملحقة بكتاب ميليشيا الإلحاد (ص١٩٣).

(٢) ينظر: موقع مركز سلف للبحوث والدراسات مقال: المتكلمون وفطرية معرفة الله، وهو المقال الثالث من هذه المجموعة.

وفي هذه المقالة سنفصِّل أوَّل أدلة الفطرة علىٰ وجود الله ﷻ، وهو دلالة المقدمات الأوَّلية الضرورية علىٰ وجود الله ﷻ.

والمقصود بالمقدمات الضرورية: "القضايا التي يصدق بها العقل الصريح لذاته ولغريزته"[(١)]؛ كالعلم بأن كل أمر حادث له سبب، **فمثلًا:** الطفل الصغير إذا أوذيَ يبحث عمَّن آذاه ولا يقبل أن يقال: إن هذا حصل بلا سبب[(٢)].

ومنها العلم بأنَّ النقيضين لا يجتمعان، فيستحيل عقلًا أن يوجد شيء ساكن ومتحرك في الوقت نفسه[(٣)]. إلىٰ غيرها من المقدمات البدهية المسرودةِ في مظانها[(٤)].

---

(١) البصائر النصيرية للساوي (ص٢٢٠)، وقد عرفها ابن سينا بقوله: "قضايا ومقدمات تحدث في الإنسان من جهة قوته العقلية، من غير سبب يوجب التصديق بها إلا لذواتها". ينظر: النجاة لابن سينا (ص٦٤)، وللاستزادة في معناها ينظر: بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٥٦١).

(٢) ذكر هذا المثال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، ينظر: مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٣٥٨)، وذكره الغزالي في الاقتصاد في الاعتقاد (ص٢٥)، وللاستزادة ينظر: العقل والوجود ليوسف كرم (ص١٤٢ - ١٤٧)، المنطق الحديث ومناهج البحث لمحمود قاسم (ص٥٧ وما بعدها)، المونادولوجيا لمؤلفه ليبتينز، ترجمة: ألبير نصري (ص١٢).

(٣) ينظر: ضوابط المعرفة لعبد الرحمن حسن حبنكة (ص١٥٦)، وغالب كتب المنطق الصوري تحدَّثت عنه.

(٤) ينظر: المعرفة في الإسلام، د. عبد الله القرني (ص٢٩٧ وما بعدها).

ولا ريبَ في فطرية هذه المقدِّمات؛ إذْ هي ضرورية، فكلُّ إنسان يسلِّم بها بمجرَّد تصوُّرها[١]، وأيضًا لا تحتاج إلىٰ دليل ولا إلىٰ تعلُّم ونظر[٢]، بل لا يمكن الاستدلال عليها؛ إذ هي قضايا تسليمية، وإلا فما الجواب مثلًا علىٰ: لماذا كل حادث لا بدَّ له من سبب؟ لا جواب غير أنَّ طبيعة العقل لا تتقبَّل غير ذلك.

ثمَّ هذه المقدِّمات لا يمكن الشكُّ فيها أو تصوُّر نقيضها؛ لأنها مقتضىٰ غريزة الإنسان العقلية، ومقتضىٰ فطرته التي لا يتمكّن من مقاومتها، ولأنها أساس الاستدلال التي عليها تُبْنىٰ المعارف والعلوم بإجماع العقلاء[٣].

فالشكُّ فيها لا بدَّ أن يستند إلىٰ أمور نظريَّة، وتلك الأمور النظريَّة لا بدَّ أن تستند إلىٰ هذه المقدِّمات فيلزم الدور الممتنع[٤].

---

(١) العلم الضروري هو: "الذي يلزم نفس العبد لزومًا لا يمكن معه دفعه عن نفسه"، وهذا تعريف ابن تيمية في درء التعارض (٦/ ١٠٦).

(٢) ينظر: الفصل في الملل والنحل لابن حزم (٥/ ١٠٩)، درء التعارض (٣/ ٩٠٣).

(٣) ينظر: درء التعارض (٦/ ١٠٦)، أبحاث جديدة في الفهم الإنساني، ليبتينز ترجمة: د. أحمد فؤاد كامل (ص٧٦).

(٤) درء التعارض (٣/ ٣١٠)، ومعنىٰ الدور الممتنع: أن يتوقَّف الشيء علىٰ ما يتوقَّف هو عليه، كما في مثالنا يتوقَّف التشكيك في المقدِّمات الأوَّلية علىٰ الأدلَّة النظريَّة المتوقِّفة علىٰ المقدِّمات الأولية نفسها.

أضف إلى كل ما سبَق أنَّه لا يختلف البشر في التسليم بها دون طلب دليل، ولو لم تكن فطريَّةً لأمكن الاختلاف، ولم يتفقوا علىٰ التسليم بها.

إذن هذه المقدِّمات فطريَّة ضرورية في النفوس.

ولكن ثمَّة إشكال حَيَّر العقلاء:

وهو أن واقع الإنسان يؤكِّد أن هذه المقدِّمات لم تحصل له منذ ولادته بالفعل؛ كما قرَّر ذلك القرآن: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٨][(١)]، وكيف يتفق هذا مع قولنا بأنَّ المقدّمات الضرورية لا يمكن الاستدلال عليها، فكيف تحقّقت هذه المقدمات إذًا؟ هذا إشكالٌ قويٌّ[(٢)].

والجـواب: أن المقصود بفطريَّتها أنها موجودة بالقوة منذ ولادته، لا أنها متحققة بالفعل، فالإنسان مفطور علىٰ التسليم بها بمجرد تصورها بحيث لا يحتاج إلىٰ برهان؛ لأن الغريزة العقلية تقتضيها بالضرورة.

---

(١) وقد أكَّد المفسِّرون هذا المعنىٰ، ينظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٧٨)، روح المعاني للألوسي (٨/ ٢٠١)، وأيضا قرّر هذا المعنىٰ (جون لوك)، وألّف في ذلك كتاب (مبحث في الفهم الإنساني).

(٢) كما وصفَه الرازي، ينظر: مفاتيح الغيب (٢٠/ ٩١).

وعلى هذا فليست فطريتُها هو مجرَّد إمكانها، بل وجوب تحققها مع سلامة الحواس والغريزة العقلية[١].

وإذا كانت هذه المقدِّمات فطريَّةً ضروريةً، فمن الذي فطَرها؟!

إنه الله ﷻ ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق:٤، ٥]

فوجود هذه المقدِّمات يدلُّ ضرورة علىٰ وجود فاطرِها الذي هو سبحانه مُبْتدَأُ المعرفة؛ إذ هو من علّمهم بلا واسطةٍ المقدماتَ الضروريةَ، والأدوات التي يتوصلون بها للعلوم النظرية، وعلَّمهم الشرع والدين بواسطة الأنبياء، فالعلم به أصل كل علم[٢].

هذا حال المؤمن المهتدي بالنور والهدىٰ المنزَّل من ربِّه، وأما الملحد الذي ينكر وجود الله سبحانه فإنه لا يجد تفسيرًا مقنعًا لوجودها.

إن الملحد هنا لا ملجأَ له غير الحيرة والشك في إلحاده، فإن أبىٰ إلا العناد والمكابرة، رَجَعَ بالتشكيك علىٰ أصل المسألة، فينكرُ فطريةَ هذه المقدِّمات، ويزعُم أن مصدرها الحسُّ؛ لانفرادِ الحسِّ بمصدرية المعرفة[٣].

---

(١) ينظر: المعرفة في الإسلام، د. عبد الله القرني (ص:٢٠٣).

(٢) ينظر: شرح الأصبهانية لابن تيمية (ص:١١٠)، مفتاح دار السعادة (١/ ٨٦). وللاستزادة في هذا المعنىٰ ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٤٣٧)، التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٤١)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٩/ ٢٥).

(٣) ينظر: نظرية المعرفة لزكي نجيب محمود (ص٥٢)، المعرفة في الإسلام، د. عبد الله القرني (ص:٣٠٦).

أمَّا دعواهم انفرادَ الحسِّ بمصدريَّة المعرفة، فيكفينا لإدراك بطلانها أنَّ أدلَّة هذه الدعوىٰ نفسها ليست حسِّية؛ إذ ادِّعاء كونِ علم الناس كلِّهم تَمَّ عن طريق الحسِّ كلِّيٌّ تعميميٌّ لا يحصل إلا بالعقل، فكيف يصحُّ القولُ بأنَّ هذه المقدِّمات مصدرها التجربة، مع أنَّ هذه المقدِّمات لا غنىٰ عنها؛ لكي تكون التجربة ممكنة؟!(١).

وقد استدلوا علىٰ انفراد الحسِّ بمصدرية المعرفة بأدلة؛ كقولهم: إنَّ تحليل الأفكار يُوصِل إلىٰ أنها في الحقيقة أفكارٌ بسيطةٌ، كل فكرة منها صورة لانطباع حسِّي(٢)، وقولهم: إنَّ تحقُّقَ هذه المبادئ موقوف علىٰ القوىٰ الحسِّية(٣).

فأما دليلهم الأوَّل، فبِالرَّغم من كونه مجرَّد دعوىٰ لا دليل عليها، فإنَّ ثبوت صفتي الضرورة والكلية(٤) لهذه المبادئ

---

(١) ينظر: المنطق الحديث ومناهج البحث لمحمود قاسم (ص٥٧)، مصادر المعرفة للزنيدي (ص٥٢٤ وما بعدها)، إمانويل كانت: لعبد الرحمن بدوي (ص١٧٥-١٧٧).

(٢) ينظر: ديفد هيوم لزكي نجيب محمود (ص١٤١).

(٣) ينظر: ديفد هيوم لزكي نجيب محمود (ص٣٦)، مدخل جديد إلىٰ الفلسفة لعبد الرحمن بدوي (ص١٦٧).

(٤) المقصود بكليتها: أنها عامة لا تختص بموجود عن موجود، بل تعم المشاهد المحسوس وغير المحسوس.

-وهذا ما لا يستطيعون إنكاره- يناقض كونها ناشئة عن التجربة[١].

وأمَّا قولُهم بأنَّ تحقُّقَها متوقِّف على القوىٰ الحسِّية، فإنَّه لا تناقض بينه وبين القول بفطريَّتها؛ لأنَّ معنىٰ فطريتها وجودها بالقوَّة كما سبق، وأما تحقُّقها المتوقِّف علىٰ القوىٰ الحسِّية فهو وجودها بالفعل[٢].

وإن سلَّمنا جدلًا أنَّ مصدرَ هذه المبادئ الحسُّ، فيلزم أن تكون أمورًا احتمالية لا ضرورية؛ ممَّا يؤول إلىٰ القول باحتمالية العلوم والمعارِف وعدم يقينيَّتِها، وهو ما التزموه وتوصَّلوا إليه بعقولهم المتطوِّرة، ولكنها في الحقيقة رجَعت بهم إلىٰ عقليات السفسطة اليونانية!! فإنَّ مَن شكَّ في العقليات فتشكيكه في الحسيات أسهل[٣].

فضَرِيبة التسليم بأنَّ مصدرها الحسُّ وأنَّها احتمالية: باهظةُ الثمن؛ إذ يلزم منه التالي:

---

(١) المعرفة في الإسلام، د.عبد الله القرني (ص٣١٣).

(٢) ينظر: المعرفة في الإسلام، د. عبد الله القرني (ص٣١٤)، وممَّن أكَّد أن تحقُّقها متوقِّف علىٰ الحسِّ ابنُ رشد في شرح البرهان لأرسطو (ص٤١٦)، والرازي في مفاتيح الغيب (٢٠/ ٩٢).

(٣) ينظر: العقل والوجود ليوسف كرم (ص١٤٦)، شموع النهار لعبد الله العجيري (ص٤٣ وما بعدها).

أولًا: انعـدام الثقـة بـالمنهج العلمـي التجريبـي؛ لعـدم الثقـة في أدوات الرصد والملاحظة والاستقراء؛ إذ المـنهج العلمـي معتمـد علىٰ هذه المقدمات.

فمـثلًا: القـول بوجـود الجاذبيـة معتمـدٌ أوَّلًا علـىٰ أنَّ سـقوطَ الأشـياء إلـىٰ الأسـفل يـدلُّ علـىٰ وجـودِ جاذبيـة في الأرض؛ وهـذا اعتمـادٌ علىٰ مقدِّمـة ضـرورية، وهـي: أن كـل حـادث لا بـد لـه مـن سبب، فإن سلَّمنا بأن الحوادث قد تحدث بلا سـبب، فـلا موثوقيـة في وجود الجاذبية!

ثانيا: القول بالنسبيَّة وعدم إمكانية الوصول إلىٰ حقيقة مطلقـة؛ لأنها مبنية علىٰ فطريَّةِ المقدِّمات، ولو كانت مجرد اكتسـاب عقلـي لكانـت مجـرد معـارف نسـبية، ممَّـا يـؤدي إلـىٰ إنكـار الحقيقـة الموضـوعية والقـول بالنسـبية، ولاعجـب فقـد سـبقهم أسـلافهم السوفسطائيُّون إلىٰ ذلك[1]!

ثالثا: عـدم إمكانيـة التواصـل والإقنـاع بـين البشـر؛ إذ هـو مَبنِيٌّ علىٰ معارف مشتركة مطلقة ومستندة إلىٰ هـذه المقـدمات العقليـة،

---

(١) فالسوفسطائيون من أوائل من قال بإنكار الحقيقة المطلقة، ينظر: مناهج البحث عند مفكري الإسلام، د. علي سامي النشار (ص١٩١)، وتبعهم في ذلك البراجماتيون، ينظر: فلاسفة أيقظوا العالم، د. مصطفىٰ النشار (ص٧٧)، تطور الفكر الغربي، لمجموعة من الباحثين (ص٤٢٤)، أعلام الفلسفة الحديثة، د. رفقي زاهر (ص١٧١).

وبدون وجود هذه المقدِّمات يظلُّ كلُّ طرف من البشر محبوسًا في إطاره المعرفي الخاص!

ومن جميع ما تقدَّم يُعلَم أنَّ المقدِّمات الأوَّلية الضرورية فطريَّة وعقليَّة، وأنَّ دليل صحتها هو مجرَّد تصورها، وعدم إمكانية التشكيك فيها، فهي أساسُ كلِّ استدلال، وهذا ما لا يختلف فيه أحدٌ من البشر.

وفطريّةُ هذه المقدِّمات يدلُّ ضرورة علىٰ وجود من أوجدها وفطَرَها، ولا ملجأ لمنْكِر وجود الله سوىٰ إنكار فطريّتها، ولكنَّ المسألة لا تنتهي بذلك، بل يوصِلُ في نهاية المطاف إلىٰ السفسطة وانعدام الثقة بالمنهج العلمي التجريبي!

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه وسلم[1].

(١) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.

الغَرائِزُ الفطريةُ ووُجودُ اللّه

❁ ما تفسير الغرائز الكامنة في أغوار الكائنات الحية؟

هذا السؤال من أكبر الأسئلة التي حيرت العلماء الماديين، وحين يتأمله ذوو الفِطَر السليمة فإنه لن يقودهم إلا إلىٰ حقيقة ضرورية يجدها كل إنسان؛ أن الله الذي خلق الخلق أودع في خلقه ما يدلُّ عليه ﷻ، ومنها الغرائز الفطرية، **وهي دوافع وميول كامنة في النفس، موجودة منذ الولادة، تدفعها إلىٰ أعمال وسلوكيات تصب في مصالحها.**

كالطفل ينساق إلىٰ ارتضاع ثدي أمّه، ومصِّ اللبن منه كي ينمو ويسدَّ جوعه دون تعليم ولا تدريب[1].

وكيف يعيش الطفل لو كان يحتاج منذ ولادته إلىٰ تعليمٍ لطريقة التقام الثدي وكيفية مصِّه وطريقة ازدراد اللبن؟! وبأي الوسائل سنعلمه ذلك؟!

---

(١) ينظر: العقيدة الإسلامية وأسسها لـ د. عبد الرحمن حسن حبنكة (ص٨٩)، شموع النهار للشيخ عبد الله العجيري (ص٧٢).

ثم ارجع البصر وتأمل في غريزة الأمومة، تلك التي تبدأ بحمل الطفل في أحشائها تسعة أشهر، لا تكترث أن يؤلمها طفلها بحركاته، ويشاركها في طعامها، ويمنعها من نومها وراحتها، ثم بعد كل ذلك لا تمانع أن تفديه بحياتها حين ولادته؛ إذ تكون بين الحياة والموت، فإن خرج أقبلت عليه بكل قلبها، وأغدقت عليه ينابيع رعايتها وحبها، وآثرته بنفسها حتىٰ يشبَّ، واقرأ عجائب "قصص الأمهات مع أبنائهن:

ابن يطعن أمه فتسعىٰ في الشفاعات ألا يعاقَب أو يؤذَىٰ!

وآخر يهجر أمه، فلا تكون لها في الحياة أمنية إلا في الجلوس معه!

ابن مشلول، وأم عجوز تقوم علىٰ شأنه بعد أن بلغت من الكبر عتيًّا!"[1].

وليس هذا مقصورًا علىٰ الإنسان، بل هي في البهائم أعجب، فتأمل تفاني البطريق في حماية صغيره؛ حيث يظل حاميا لفرخه بين ساقيه طيلة أربعة أشهر دون تناول طعام، بل تعجب من أمومة التماسيح المتوحشة، كيف تدفن بيضها حفاظا عليه، وعندما يخرج صغارها تضعهم في فمها حتىٰ يشتد عودهم، ثم إذا واجه الصغير أيَّة خطورة كان فمُ أمه الملاذ الآمن، ثم انظر إلىٰ أنثىٰ اللبان كيف يتوجب عليها أن تأكل جيدًا لترضع صغارها،

---

(١) شموع النهار للشيخ عبد الله العجيري (ص ٧٣).

وفي ذات الوقت الذي ينمو فيه صغيرها يتقلص حجمها هي ولا تمانع[١]!

لا أدري كيف تنتظم الحياة إن لم توجد غريزة الأمومة هذه!!

والغرائز كثيرة يطول بنا المقام إن أردنا استقصاءها، ولعلنا نعرِّج هنا إلىٰ ما ذكره القرآن، ألا وهي مملكة النحل وغرائزها؛ كتعاونهم وتكاتفهم علىٰ العمل والإنجاز، وانضباطهم في العمل المؤسسي، وتصميمهم العجيب للخلية الذي يسبق تصاميم خبراء الهندسة والرياضيات، وتفانيهم في حماية الخلية بحراستها وطرد كل من يحاول اختراقها ثم وقايتها من التعفن[٢].

ومن الغرائز البشرية التي لا يحسن إغفالها غريزة التدين.

---

(١) ينظر: الأفلام الوثائقية في كل ذلك، وهي موجودة علىٰ الشبكة.

(٢) وقد أخبرنا الله ﷻ عن هذا بقوله: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل:٦٨، ٦٩]، وللاستزادة ينظر: مقال من عجائب المخلوقات القرآن وأمة النحل علىٰ شبكة الألوكة:

http://www.alukah.net/culture/0/71891

وشاهد أيضا وثائقي كيف يصنع النحل العسل؟

https://www.youtube.com/watch?v=DKBCUQ5DjsE

فإن الإنسان يجد من نفسه افتقارًا إلىٰ من يعبده ويخضع له، ويتلهف إلىٰ معونته ومدده ويبتهل إليه، كما شهد به المؤرخ الإغريقي بلوتارك بقوله: "لقد وجدنا في التاريخ مدنًا بلا مدارس، ووجدنا في التاريخ مدنًا بلا حصون، ووجدنا في التاريخ مدنًا بلا مستشفيات، ولكن ما وجدنا في التاريخ مدنًا بلا معابد"(١).

وتنجلي هذه الغريزة إذا ادلهمَّت الخطوب علىٰ الإنسان، وانقطع أمله من أمثاله من المخلوقات، فيتوجّه ضرورة إلىٰ الخالق، كما قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [يونس:٢٢](٢).

وإذا كان الإنسان لا بد له من دين، والإله أهم أركان التدين، دلَّ ذلك علىٰ ضرورة وجود الله ﷻ.

فهذه بعض الغرائز، وغيرها كثير لا يكاد يخلو حيوان منها(٣)،

---

(١) ولذا تجد في تاريخ البشر تنوعًا هائلًا في أنواع المعبودات، حتىٰ إن بعضهم يعبد الحجر والبقر والجرذان!

(٢) والدراسات الغربية الحديثة تعترف بهذا ولكن بلغة أخرىٰ، فهناك كثير من الدراسات التي تجرىٰ علىٰ هذه الغريزة حتىٰ صار يُبحث عن جين موجود في نفس الإنسان مسؤول عن التدين!! ينظر: شموع النهار للشيخ عبد الله العجيري (ص ٣٢).

(٣) كغريزة التناسل، وميل كل من الجنسين إلىٰ الآخر، وطلب العيش، وحب البقاء، وحب الكمال والجمال، وحب الولد، ومما لوحظ من الغرائز علىٰ البهائم خاصة: بناء المسكن، والدفاع عن النفس وتدابير الحذر من المخاطر، والهجرة الجماعية المنظمة، وغيرها من الغرائز الفطرية.

فكيف نفسر وجود هذه الغرائز؟ من أودعها وأوجدها؟

قد أجاب القرآن عن هذا حين سأل فرعون -المتظاهر بإنكار الخالق- عن الإله الذي يستحق أن يعبد، فردَّ عليه ﷻ بهذه المسألة الظاهرة التي لا يملك إنكارها، فقال: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]، "فهدىٰ كل مخلوق إلىٰ ما خلقه له، وهذه الهداية العامة المشاهدة في جميع المخلوقات، فكل مخلوق تجده يسعىٰ لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه... وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة:٧]... ولهذا لما لم يكن لفرعون أن يعاند هذا الدليل القاطع عدل إلىٰ المشاغبة، وحاد عن المقصود فقال لموسىٰ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [طه:٥١]"[(١)].

وكما عجَزَ فرعون عن الإجابة عن تفسير هذه الغرائز، فلا زالت هذه المسألة مُؤرِّقة ومرهقة لأمثاله من المنكرين لوجود الخالق ﷻ، يقول (جوردن تايلر) أحد دعاة نظرية التطور: "لو تساءلنا عن كيفية ظهور أول سلوك غريزي، وعن كيفية توارث هذا السلوك الغريزي لما وجدنا أية إجابة"[(٢)].

---

(١) تفسير السعدي (ص ٥٠٧).

(٢) نقلا عن: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن و السنة، مقال: الغريزة ونظرية التطور: http://quran-m.com/quran/printarticles/2170

ولا غرابة فقد اعترف كبيرهم داروين أن الغرائز من أكبر الأدلة المبطلة لنظريته بقوله: "الكثير من الغرائز بديعة إلىٰ درجة أنه من المحتمل أن نشأتها سوف تُظهر للقارئ صعوبة كافية للإطاحة بنظريتي بالكامل"[١].

ولكن بعض الملحدين المكابرين فسرها تفسيرًا ماديًّا، وادعىٰ أنها راجعة إلىٰ الجين الأناني[٢]، ويقصد بذلك أن هناك جينًا في الأحياء يريد أن يستأثر بالبقاء! ويدفع إلىٰ السلوكيات التي تؤدي إلىٰ ذلك، فتعريض الكائنات الحية أنفسها للخطر لتحيا صغارها ليس تضحية وتفانيا من أجلهم، وإنما ذلك بسبب ضغط الجين الأناني!

ويكفي لردِّ هذا القول أن نقول: إنه مجرد مصادرة لا دليل عليها.

ولو سلمنا جدلًا برأيه، فمن أوجد هذا الجين نفسه إذن؟! ثم من علَّم هذه الجينات الصمَّاء أن تدفع إلىٰ مثل هذا السلوك وهي غير قادرة علىٰ التفكير، فاقدة للذكاء والعقل؟!

---

(١) أصل الأنواع لتشارلز داروين، ترجمة: مجدي المليجي (ص٣٩٤).

(٢) ومن أشهر من ادعاها داعية الإلحاد الشهير وعالم الأحياء الأمريكي (ريتشارد دوكنز) في كتابه الذي سماه (الجين الأناني).

ولكـن مـا عبَّـر عنـه في الحقيقـة هـو أحـد الغرائـز الفطريـة في الحيوانات، وهي غريزة الحفاظ علىٰ النسل، التي تُعتبر منَّةً مـن الله للحفاظ علىٰ الحياة.

ومن محاولات منظري التطورية لتفسير هـذه الغرائـز دعـوىٰ أنها تنتقل مع عملية التطور لمصلحة إبقاء الكائن الحي!

وهذه مكابرة ومناقضة لما أكَّده داروين أصلًا من قبل، ثـم هـي دعوىٰ غير مقبولة علميًّا بحسب (جوردن تـايلر)؛ لأنهـا وإن قبلتهـا بعض الكائنات لكن لا يمكـن تعميمهـا؛ فعـاملات النحـل والنمـل مثلًا عقيمات، فكيـف تـتم عمليـة الانتقـال مـع أن غرائزهـا تتطلـب عقـلًا وذكـاءً بارعًـا؟! وكـذلك بنـاء الطيـور لأعشاشـها، وإنشـاء القنـدس للسـدود، يقتضـي وجـود نـوع مـن الأنمـاط السـلوكية المعقَّـدة؛ كالتصـميم والتخطـيط للمسـتقبل، ولا يـتلاءم طبيعـة جهازها العصبي مع ذلك[1].

وإن سلمنا جدلًا بقولهم، فإننا لا نرىٰ الغرائز تتطـور مـع تطـور البناء الحيوي[2].

---

(١) سر التطـور العظـيم لجـوردن تـايلر (ص ٢٢٢)، نقـلا عـن: موسـوعة الإعجـاز العلمي في القرآن و السنة، مقال: الغريزة ونظرية التطور:
http://quran-m.com/quran/printarticles/2170

(٢) كما استشكله داروين نفسه في كتابه أصل الأنواع، ينظر: (ص٩٨).

وعلى سبيل المثال: السمكة تضع بيضها تحت أحجار قاع البحر، فكيف تتطور هذه الغريزة لتصبح السمكة حيوانًا بريًّا تقوده غريزته إلىٰ بناء أعشاش خاصة علىٰ أطراف الأشجار[١]؟!

ثم وإن صحَّت هذه النظرية، فسيبقىٰ السؤال قائما: من أنشأها أول مرة؟[٢].

إذن، هذه الغرائز الفطرية الباهرة المتوائمة مع نظام الكون لا يمكن أن تنشأ من تلقاء نفسها، فلو رأيت جهازًا بشريًّا صُنع علىٰ أحدث التصاميم وبأدق القياسات وأحسن الميزات، هل لك أن تصدق أو تتخيل أنها نشأت من نفسها، أو وُجدت صدفة، أو لا مصمم لها.

هيهات[٣]!

---

(١) فهذا مناقض لزعم التطوريين الذين يزعمون أن الطيور نشأت من الزواحف وهي نشأت من الأسماك.

(٢) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مقال: الغريزة ونظرية التطور: http://quran-m.com/quran/printarticles/2170
وشموع النهار للشيخ عبد الله العجيري (ص ٧٢).

(٣) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.

الـمُتكلِّمُون
وفطـريَّةُ مَعــرفَةِ اللّه

لا خـلاف بـين المسـلمينَ في أنَّ كـل مسـائل الاعتقـادِ مبناهـا الإقرارُ بوجودِ الله ﷻ، ولكـنَّ الخـلافَ في الوسـيلةِ الموصـلةِ إلىٰ هذه النتيجة، هل هي فطرية أم نظرية؟

فأما أهـل السـنة فـإنَّ معرفـة الله تعـالىٰ عنـدهم فطريـةٌ بديهيـةٌ ضـروريةٌ لا تحتـاج إلـىٰ نظـر واسـتدلال[١]، إلا أن العقـلَ والنظـرَ مسـاندٌ لهـذه الغريـزة؛ "لينـالَ المـؤمنُ بـذلك زيـادة اليقـين وثلـج الصدر "[٢].

وهذا من حيث الأصل، إلا أنه قـد يَعـرِضُ للإنسـان مـا يحتـاج معه إلىٰ النظرِ والاسـتدلال العقلي؛ لإيقـاظ هـذا المعنـىٰ الفطـري الكامن في الـنفس[٣]، فسبُل معرفـة الله تعـالىٰ ليسـت محصـورةً في الفطرةِ وحدها، بل الأدلةُ الدالةُ علىٰ وجوده ﷻ كثيرة متنوعة[٤].

---

(١) ينظر: بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٥٧٠).

(٢) الانتصار لأهل الحديث (ص٦٠).

(٣) ينظر: درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣٠٣).

(٤) ينظر: درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣٠٣).

وأما المتكلمون فقد أنكروا دلالةَ الفطرة، وضيَّقوا على أنفسهم، وجعلوا السبيلَ الوحيدَ للإقرار بوجودِ الخالق هو العقلُ كما قال القاضي عبد الجبَّار المعتزلي: "إن سأل سائل فقال: ما أولُ ما أوجبَ اللهُ عليك؟ فقل: النظرُ المؤدِّي إلى معرفة الله تعالى؛ لأنه تعالى لا يُعرَفُ ضرورة ولا بالمشاهدة، فيجب أن نَعرفه بالتفكُّر والنَّظر"[(١)]، وقال الباقلاني وهو يقرِّر ذلك: "وأنْ يُعلم أن أوَّل ما فَرض الله ﷻ على جميع العباد النظرُ في آياته...؛ لأنه سبحانه غير معلوم باضطرار... وإنما يُعلمُ وجودُه وكونُه على ما تقتضيه أفعالُه بالأدلّة القاهرة، والبراهين الباهرة "[(٢)].

وهذا الأمر أدَّى بهم إلى انحرافات عقدية أخرى؛ كمسألة أوّل واجب على المكلف، هل هو النظر، أو القصد إليه، أو الشك؟ .. إلخ[(٣)].

---

(١) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص ٣٩).

(٢) الإنصاف للقاضي الباقلاني (ص٢٢)، وليس هذا قول بعضهم بل هو قول عامة المتكلمين، ينظر: الإرشاد لإمام الحرمين الجويني (ص ٣)، المواقف للإيجي (ص٣٢).

(٣) ينظر: مجموع الفتاوى (١٦/ ٨٣٣)، درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣٣٣)، فتح الباري لابن حجر (١/ ٧٠).

وأيضًا مسألة حكمِ إيمانِ المقلِّد[١]، وغيرها من المسائل العقدية التي زلت فيها أقدام أهل الكلام؛ بسبب حصرهم معرفةَ الله تعالىٰ في الدليل العقلي.

ولن نطيلَ الحديثَ في هذه المسائل وإبطالها؛ إذ بِبَيان بطلان أصلِ المسألة تبطل الفروع كما فعل ابن حجر[٢].

فإنَّ ما ذكرنا من أن أدلة معرفة الله ﷻ ليست محصورة في العقل قولٌ عليه الكثير من الأدلة، ومنها دليل الفطرة الذي نحنُ بصددِ الحديثِ عنه، حيث إنها وردت في كثير من نصوص الكتاب والسنة، ومن ذلك:

١. **أمر الله ﷻ صراحةً بلزوم هذه الفطرة التي فطرنا عليها من معرفته وتوحيده بصيغة الحثِّ والترغيب**[٣]، حيث قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ

---

(١) ينظر: شرح الكبرىٰ للسنوسي (ص ٣٩)، شرح الجوهرة للبيجوري (ص ٣٢) وما بعدها.

(٢) قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكر هذه المسائل: "ومع ذلك فقول الله تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠] وحديث: «**كل مولود يولد علىٰ الفطرة**» ظاهران في دفع هذه المسألة من أصلها". فتح الباري لابن حجر (١/ ٧٠).

(٣) ينظر: تفسير البغوي (٦/ ٢٦٩).

لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم:٣٠] أي: فسدد وجهك واستمر علىٰ الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها؛ فإنه تعالىٰ فطر خلقه علىٰ معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره(١).

٢. **إخبار الله ﷻ صراحة بأنه جعل في خلقنا وفطرتنا هذه المعاني وأشهدنا عليها**(٢)، حيث قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٢].

فهذه الآية مع اختلافِ مفسِّري أهل السنة، بين من جعلها قصة حقيقية واقعية، ذاهبًا إلىٰ أن الإشهاد كانَ حقيقةً في عالم الذرّ، وبين قائلٍ: إنها كناية عن خلقهم علىٰ هيئة يقرون معها بالله ﷻ، إلا أنهم يتفقون علىٰ أن معرفة الله ﷻ فطرية(٣).

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٣١٣).

(٢) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣/ ٤١).

(٣) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٢/ ٢٩٩) وقد أورد الأحاديث والآثار الواردة في ذلك ومن أهمها الحديث الوارد أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ الآية [الأعراف:١٧٢] فقال: سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال: «**إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية،** =

ومع إيماننا بأن الله ﷻ أخذ الميثاق من بني آدم علىٰ الحقيقة، فإنه لا يلزم من هذا بطلان القول بأن الإنسان يولد علىٰ الإيمان بوجود الله ﷻ، بل هو مولود علىٰ الإيمان به، والدليل علىٰ هذا قوله ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء**». ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم:٣٠][(١)].

قال ابن حجر: "وأشهر الأقوال أنَّ المراد بالفطرة الإسلام"[(٢)]، **ثم نقل عن ابن عبد البر قوله في التمهيد:**

= **فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»، فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟! فقال: «**إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتىٰ يموت علىٰ عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتىٰ يموت علىٰ عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار**»، والحديث أخرجه أبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٧)، وابن حبان (٦١٦٦)، والضياء في المختارة (٢٦٢). وللاستزادة في معنىٰ الآية والأقوال ينظر: إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم (٣/ ٢٩٠)، تفسير البغوي، ط طيبة (٣/ ٣٠٠).

(١) متفق عليه، صحيح البخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٦٩٢٦).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٣/ ٢٤٨).

"وهو المعروف عند عامة السلف، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠] الإسلام"(١)، فالإنسان يولد على نوع من الجبلة والطبع المتهيئ لقبول الدين(٢)، وأهم مقولات الدين: إثبات وجود الله ﷻ، وهذا المعنى متوافق مع اللغة أيضا(٣).

ومما يؤكد صحة القول بأن الإنسان يولد على الإيمان بوجود الله ﷻ قول النبي ﷺ: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم، مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبدًا حلال،**

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٨/ ٧٢) ثم بين حججهم فقال: "واحتجوا بقول أبي هريرة في آخر حديث الباب: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، وبحديث عياض بن حمار اللاحق لهذا الحديث في الأصل، ورجحه بعض المتأخرين بقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ لأنها إضافة مدح، وقد أمر نبيه بلزومها، فعلم أنها الإسلام، وقال ابن جرير: قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي: سدد لطاعته ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مستقيما ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: صبغة الله".

(٢) في تعريف الفطرة أقوال للعلماء، وما ذكرته هو مذهب عامة السلف وعامة أهل التأويل في تفسير آية الروم، ينظر: شرح النووي على مسلم (١٦/ ٢٠٨)، درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣٠٣)، شفاء العليل (ص ٤٧٨)، فتح الباري لابن حجر (٣/ ٢٤٨).

(٣) ينظر: لسان العرب: مادة "فطر" (٥/ ٥٥ - ٥٦)، تاج العروس (١٣/ ٣٢٥ - ٣٢٦)، ابن فارس (٤/ ٥١٠).

وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا...»[(١)]، "فالحنيفية الإسلام"[(٢)]، "والحنيف في كلام العرب المستقيم المخلص، ولا استقامة أكثر من الإسلام"[(٣)]، فإن كانت الفطرة دالة على الإسلام فدلالتها على وجود مشرّع الإسلام من باب أَوْلى.

٣. أسلوب تعامل الوحي مع المعترضين على هذه الفطرة:

يعتبر فرعون من أشهر من أنكر وجود الله ﷻ، وإذا ما تأمَّلنا منهج الوحي في إبطال ما ذهب إليه، وجدنا أن النصوص تذكِّره بما هو مركوزٌ في فطرته، قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه:٤٤]. فآيات القرآن تشير إلى أن فرعون كان مولودًا على الإيمان بوجوده ﷻ، ثُم حصل منه الجحود والغفلة عن هذا العلم؛ ولذا كان القول الليِّن من دواعي تذكُّر فرعون لما في فطرته من العلم الذي به يعرف ربه[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٧٣٨٦).

(٢) ينظر: شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٩٧).

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ٢٨٦)

(٤) ينظر: مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٣٨).

وكذلك كان جواب القرآن علىٰ قول الأمم الذين قَالُوا: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم:٩] فكان الردُّ ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:١٠]، **وهذا يحتمل شيئين:**

أحدهما: أفي وجوده ﷻ شك؟! فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة علىٰ الإقرار به؛ وعلىٰ هذا فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة.

والثاني: أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة شك؟! ولا يستحق العبادة إلا هو، وحده لا شريك له؛ فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع[(١)].

فالفطرة دالةٌ علىٰ وجوده ﷻ، وأما مَنْ اجتَالتْه الشياطين، وانصرف عن هذا، وشكَّ في هذه الفطرة، نُبِّه بالأدلة العقلية، ودُعي إلىٰ التفكُّر في شواهد الكون الدالة عليه ﷻ؛ لعل غريزته تستيقظ ويعود إلىٰ الإيمان بوجوده ﷻ[(٢)].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ٤٨٢).

(٢) ينظر: درء التعارض لابن تيمية (٣/ ٣١٠)، مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٣٣٤)، الانتصار لأهل الحديث (ص٦٠).

ومع ما قرَّرنا من أن مذهب المتكلمين إنكار فطرية معرفة الله ﷻ، فإن من الإنصاف أنْ نبيِّن أنَّ منَ المتكلمين منْ أثبتَ ذلك؛ كالشهرستاني والغزالي مثلًا[١].

هذا وقد تبيَّن لنا أنَّ الحقَّ الذي أثبته الوحي وعليه أهل السنة والجماعة أنَّ الله ﷻ فطَر خلْقه علىٰ معرفته وأمر بلزوم تلك الفطرة، ولكن قد يعرِضُ لها ما تحتاج معه للنظر العقلي.

ولا يُلتفت إلىٰ من أنكر هذه الفطرة بعد أن أثبتها القرآن والسنة الصحيحة[٢].

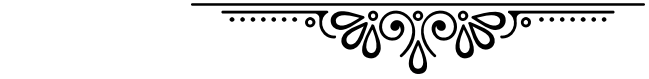

(١) أثبت الغزالي ذلك في كتابه إحياء علوم الدين (١/ ٨٦) إلا أن له كلاما يناقضه في كتابه المنقذ من الضلال (ص: ١٨١)، وللاستزادة ينظر: نظرية المعرفة عند الغزالي بقلم د. عبد الله حسن رزق:

http://almuslimalmuaser.org/index.php?option=com_k2&view=item&id=310: nazariat-el-ma3refa

وأما الشهرستاني فقد صرّح بذلك في كتابه نهاية الإقدام (ص: ١١٨) في القاعدة الخامسة.

(٢) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.

دليـــل الإبداع والاخـــتراع

وجولة مع الـملحدين

يعتبر دليل الاختراع[1] باكورة أدلة وجود الله تعالىٰ، بل أقواها وأظهرها وأوسعها انتشارًا علىٰ مر التاريخ.

وخلاصته: أننا نرىٰ الأشياء من حولنا كالسحاب والنبات والحيوانات وغيرها، تحدث بعد عدمٍ تباعًا، بل الإنسان نفسه يعلم أنه حادث بعد أن لم يكن[2].

---

(١) سُمِّي بهذا الاسم التفاتًا إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١]، فالخلق هنا بمعنىٰ الإبداع والاختراع، وممَّن سمَّاه بهذا الاسم ابن رشد الحفيد في كتابه الكشف عن مناهج الأدلة (ص١١٩)، ومن أسمائه أيضا: دليل الخلق والإيجاد، ودليل الملك، ودليل الحدوث، والمحرك الأول، والدليل الكلامي، والدليل (الكوزمولوجي)= الكوني، وغيرها من الألقاب والأسماء، ينظر: شموع النهار للشيخ عبدالله العجيري (ص٩٥).

(٢) الصحيح الثابت بنصوص القرآن أنَّ ثبوت حدوث بعض أجزاء الكون كافٍ لإثبات حدوث العالم، وذلك مدرك بالضرورة الحسية؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم:٦٧]، =

فهذا أمر معلوم بالضرورة الحسية[١].

= فالإنسان يعلم من نفسه ضرورةً أنه حادث، وُجد بعد أن لـم يكـن، وأن الفنـاء مصيره لا محالة، وإثبات حدوثه كافٍ في إثبات حدوث العالم؛ قياسًا للغائـب علىٰ الشـاهد، ولعـدم وجـود المعـارض الحقيقـي لهـذا الأمـر خلافًـا لـرأي المتكلمين الذين حاولوا إثبات حدوث كل أجـزاء الكـون، فوقعـوا في أغـلاط وتناقضات واضطرابات كثيرة، وقد قرر هذا كثيـر مـن العلمـاء؛ كـابن حـزم في الفصـل في الملـل والأهـواء والنحـل (١/ ٦٣)، وكـذلك ابـن رشـد الحفيـد في الكشـف عـن منـاهج الأدلـة (ص١١٩)، وأيضـا ابـن تيميـة رَحِمَهُ ٱللَّهُ الـذي أطـال الحديث فيه. ينظر: مسألة حدوث العالم لابن تيمية (ص١٦٣-١٧١)، منهـاج السنة لابن تيمية (٢/ ٢٧٢- ٢٨٢)، الصفدية لابن تيمية (١/ ٢٠- ٢٢)، المعرفـة في الإسلام لـ د. عبد الله القرني (ص٥٠٧).

(١) وحدوث الكون مع كونه من أظهـر المعـارف الضـرورية، فقـد كـان في العصـر الحاضر من يدَّعي قدم العالم، يقول (سـتيفن هـوكنج) في كتابـه تـاريخ مـوجز للزمان (ص٥٢): "ثمـة أنـاس كثيـرون لا يحبـذون فكـرة أن الزمـان لـه بدايـة، وربما كان ذلك لأن فيه مجالًا للتدخل الميتافيزيقي، وهكـذا كـان هنـاك عـدد من المحاولات لتجنب استنتاج أنه كان ثمة انفجار كبير".

غير أنها اليوم أضحت مسألةً مسلَّمةً لا نزاع فيها عند أربـاب العلـم التجريبـي، وأعرض الملحدون المعاصرون عن المعارضة بها، كما قرره كثير منهم مثـل: (برتراند رَسْـل) و(سـتيفن هـوكنج) إذ يقـول في كتابـه تـاريخ مـوجز للزمـان (ص٧): "ومـع تـراكم الـدليل التجريبـي والنظـري أصـبح مـن الواضـح أكثـر وأكثر أن الكون لا بد لـه مـن بدايـة في الزمـان، حتىٰ تمـت البرهنـة علىٰ ذلـك نهائيـا في ١٩٧٠م"، وكـان لقـانون الـديناميكا الثـاني ونظريـة الانفجـار العظـيم أعظم الأثر في اعتناق هذا القول. =

وهنا يتساءل العقل: من الذي اخترعها وأحدثها بعد العدم؟

هـل وُجـد مـن العـدم المحـض؟ بـالطبع لا؛ لأن العـدم لـيس بشيء حتىٰ يوجد شيئًا[١].

هل أوجد هو نفسه بنفسه؟ هذا أيضًا باطل، فإن الإنسان وهو في أحسن مراحل الفتوة لا يمكنه استحداث شيء في نفسه، فكيف وهو معدوم![٢]

= ينظر: نظرة علمية لـ(برتراند رسل) (ص١٠٧- ١٠٩)، الله يتجلىٰ في عصر العلم لمجموعة من الباحثين (ص١٢)، وأيضا (ص٩١)، والإسلام يتحدىٰ لوحيد الدين خان (ص٥٥).

(١) وعجبًا لبعض الملحدين يتمسكون بدعاوىٰ تُناقض عقولهم وفطرهم من أن هذه المخلوقات يمكن أن تنشأ من العدم؛ كدعوىٰ الملحد (لورانس كراوس) الذي يدعي أن الفيزياء الحديثة يمكن أن تدلنا علىٰ كيفية نشوء الكون من لا شيء، مع أن هذه الدعوىٰ ما زالت مجرد فرضية يبطلها الفيزيائيون أنفسهم ويختلفون فيها اختلافًا شديدًا، وحقيقة دعواهم أنه يمكن أن ينشأ الكون من فراغ كمي يمور بالنشاط والطاقة، تظهر فيه الجسيمات الدقيقة وتختفي.

إذن ليس المقصود وجود الكون من العدم المحض وإنما من جسيمات دقيقة ونحوها.

ويكفي في ردها أنها ما زالت مجرد فرضية لا دليل علمي عليها، وعلىٰ فرض صحتها، نتساءل عمن أحدث هذه القوانين؟ وهذه الجسيمات من العدم؟ فالسؤال لا يزال قائما. ينظر: شموع النهار للشيخ عبد الله العجيري (ص١٤٧).

(٢) ينظر: الصواعق المرسلة لابن القيم (٢/ ٤٩٤).

إذا بطل هذان، فالاحتمال الثالث والأخير هو أنه أوجده غيره، وهذا هو الممكن عقلًا والمقبول فطرةً.

ولكن هذا الذي أوجده؛ إما أن يكون حادثًا مثله، أو واجب الوجود بنفسه.

فإن كان حادثًا فيحتاج إلىٰ مَن أحدثه، حتىٰ تنتهي المخلوقات الحادثة إلىٰ مُحدِثٍ وجوده من نفسه غير مسبوق بعدم ولا يلحقه الفناء[(١)]، وهذا هو الله ﷻ الذي وصف نفسه بقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣][(٢)].

---

(١) ولو استمررنا في افتراض ذلك بحيث يكون لكل فاعل فاعل، وهكذا إلىٰ ما لا نهاية، فإنه يؤدي إلىٰ عدم حدوث شيء في الواقع، وهو ممتنع؛ وتوضيح ذلك: لو افترضنا أن مجرمًا حكم عليه بالقتل، فقال الجندي: لا يمكن أن أضرب عنقه حتىٰ يأمرني من هو أعلىٰ مني رتبة، وقال من فوقه: لا أفعل ذلك حتىٰ يأمرني من هو أعلىٰ مني رتبة، فإما أن تنتهي إلىٰ قائد يأمر بالقتل وإلا لم يقع الفعل، وهذه المسألة هي التي تسمىٰ عند أهل العلم بالتسلسل في الفاعلين المؤثرين، ولتوضيح أكثر شاهد:
https://www.youtube.com/watch?v=e99el1gavJs
ينظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمة (٣/ ١٤٩)، وبعض الملحدين لا يستوعب هذا المعنىٰ، فيورد سؤالا ساذجا وهو (فمن خلق الله) ولعلنا نناقشه في مقال لاحق بإذن الله تعالىٰ.

(٢) ونحن لا ندعي أننا نعرف كنه ذات الله وحقيقته بمجرد حدوث الكون، وإنما ضرورة وجود الله تعالىٰ وبعض كمالاته سبحانه وعدم التفريق بين هاتين النقطتين كان أحد أهم الدوافع لإنكار(كانت) إمكانية الاستدلال بمبدأ السببية علىٰ الغيبيات؛ لأن العقل لا يتجاوز معطيات الحس بزعمه، =

ويمكننـا تلخـيص هـذا الـدليل بالطريقـة المنطقيـة المشـهورة بقولنا:

(العـالم حـادث+ الحـادث لا بـد لـه مـن مُحـدث وجـوده مـن نفسه= الله هو المتصف بذلك سبحانه، فالله موجود)

وربُّنا ﷻ قد لخَّصه بأوجز من هذا بقولـه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور:٣٥][(١)].

وهـذا الـدليل مـع كونـه مـن أقـوىٰ الأدلـة العقليـة، هـو في ذات الوقت من أيسر الأدلة وأقربها إلىٰ الفطـر السَّـوية؛ بحيـث يسـتوعبه المبتـدئ قبـل المنتهـي، والعـالم والعـامي؛ لأنـه يعتمـد علىٰ مبـدأ السببية، وهو مبدأ عقلي عميق الغور في النفس البشرية[(٢)].

وحين نتأمل مناقشات رب العالمين ﷻ لمنكري وجوده نجـد هـذا الـدليل حاضـرًا ومركزيًّـا فيهـا، فحـين أنكـر فرعـون وجـود

= إضافة إلىٰ قياسه الوجود الذهني بالوجود الخارجي، ينظر: شموع النهار للشيخ عبد الله العجيري (ص٩١)، ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث لـ د. سلطان العميري (٢/ ١٦٣).

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٤٣٧)، أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٤٩٤)، وانظر أيضا: الرد علىٰ المنطقيين لابن تيمية (ص٢٥٣)، مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٢/ ١١).

(٢) ومبدأ السببية أحد المقدمات العقلية الضرورية، وقد سبق الحديث عنها ومناقشة منكريها، ينظر مقال: دلالة المقدمات الأولية علىٰ وجود الله: http://salafcenter.org/522

الله تعـالىٰ بقولـه: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشـعراء:٢٣]، كـان الجـواب: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٤]، فاحتُجَّ علىٰ استنكاره بأنه أعرف من أن ينكر، وأظهر من أن يشك فيه، فكل مخلوق حادث يدل علىٰ محدثه ﷻ[١].

وتأمل قصة النمرود الذي اغتر بملكه، فجحد ربه ﷻ، فاستدل عليه إبراهيم عليه السلام بأن حدوث المحدَثات دالٌّ علىٰ محدِثها سبحانه بقوله: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فكابر هذه الحجة وزعم أنه هو المدبر والمتصرف، فقال: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فطلب منه إبراهيم عليه السلام إحداث وتصريف أمر أظهر من الإحياء، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨]، وأُخرِس فلم يحر جوابًا[٢].

وغالب نصوص الخلق في القرآن تدور حول معنىٰ هذا الدليل[٣].

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٦/ ٣٣٤).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٦٨٦).

(٣) وتلك النصوص في الغالب تستدل بالخلق علىٰ مسألة أعظم من مسألة وجود الله، وهو استحقاقه سبحانه للعبادة وحده لا شريك له، وتأمل قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة:٢١]، وقوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف:١٩١]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣].

ولسهولة هذا الدليل وقوته واهتمام القرآن به؛ تبوأ محل الصَّدارة بين أوساط المؤمنين، فهو من أكثر الأدلة انتشارًا، وعامة المسلمين يحتجون به فضلًا عن العلماء.

ومما يحكىٰ أن أعرابيًّا من المسلمين سُئل عن وجود الرب تعالىٰ؟ فقال: يا سبحان الله!! إن البعرة لتدل علىٰ البعير، وإن أثر الأقدام لتدل علىٰ المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؟ ألا يدل ذلك علىٰ وجود اللطيف الخبير؟[١].

ويروىٰ عن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالىٰ، فقال لهم: دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتىٰ تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد، فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم، هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع!! فبُهت القوم ورجعوا إلىٰ الحق وأسلموا علىٰ يديه!![٢].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٩٧).

(٢) ينظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، ت: الأرنؤوط (١/ ٣٥)، وقد ذكرها أيضًا الإمام ابن كثير، ثم أورد استدلال كثير من علماء المسلمين بها علىٰ تنوع أماكنهم واختلاف عصورهم، ينظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٩٧- ١٩٨).

وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تأمـل في نبـات الأرض وانظـر إلـىٰ آثـار مـا صـنع المليـك

عيـون مـن لجـين شاخصـات بأحـداق هـي الـذهب السـبيك

علـىٰ قضـب الزبرجـد شـاهدات بـأن الله لـيس لـه شـريك[1]

وهكـذا تبـين لنـا أن الإيمـان بوجـود الله هـي النتيجـة العلميـة المستخلصة من معطيـات المبـادئ العقليـة الضـرورية والمشـاهدة الحسية لحدوث الكون، فالمؤمنون يعتمدون علىٰ فطـرهم السـويَّة وعقولهم السليمة لإثبات وجود الله، وليس اعتمـادهم علـىٰ مجـرد ملء الفراغ العلمي أو الاستدلال بـالمجهول أو مجـرد العاطفـة أو الحدس أو المنفعة أو عدم الدليل المعارض كما يـزعم ذلـك كثيـر من الملحدين[2][3].

---

(١) أورده أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي في كتابه (أحسـن مـا سـمعت) (ص: ١٠).

(٢) والأدهىٰ والأمر أنه وجد في الفكر الغربي مـن يـؤمن بوجـود الله ﷻ، ويـدعي أنها ليست مسألة عقلية بحيث يمكن الاستدلال عليها بالعقل، ومن أشهرهم: (كانت) و(جون لوك) و(برجسون) و(باسكال) وممـن تـأثر بهـم مـن العـرب (زكي نجيب محمود)، ينظر: ظاهرة نقد الدين في الفكر الحداثي الغربي لـ د. سلطان العميري (ص٣١ وما بعدها).

(٣) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.

الإتقانُ والإحكامُ ووُجودُ اللّه تعالى[1]

هل حدَّثتك نفسُك أن تتفكَّر يومًا في العمليات المعقدة التي تُؤدِّيها -أخي القارئ- وأنت تقرأ كلماتي هذه؟

قبل أن نستعرض حيْرة صاحب نظرية التطور نفسه (داروين) أمام تلك العمليات، دعنا نتباحث حول احتياجات محاكاة هذه العملية بالتقنيات الحديثة؟

بادئ ذي بدءٍ نحتاج إلىٰ (كاميرا) عالية المواصفات؛ يمكنها التمييز بين الألوان؛ لإدخال صورة الحرف، ولا بد من اختيار المكان المناسب للكاميرا؛ لتكون واضحة مقروءة.

ولعلنا نتنبه إلى أن عملية التصوير بالكاميرا ليست مجرد ضغطة زر كما يبدو، بل هي الأخرىٰ تحتاج إلىٰ خبرة وعمليات معقدة[2].

---

(١) وإلىٰ هذا المعنىٰ أشار ﷻ بقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]، ومن أسمائه: دليل العناية ودليل الرعاية ودليل التدبير ودليل التخصيص ودليل التسوية ودليل الهداية ودليل النظام ودليل الغاية ودليل التصميم وهذا الاسم الأخير أكثر استعمالا عند المشتغلين بالعلم التجريبي. ينظر: شموع النهار للشيخ عبد الله العجيري (ص١٧٢).

(٢) أقصد بها عمليات إعداد الكاميرا للتصوير التي يعرفها خبراء التصوير؛ مثل: (تحديد المجال " SCOPE "، وتحديد بؤرة التركيز "FOCUS "، وتركيز العدسة علىٰ المشهد أو ما يسمىٰ عمق المشهد " DEPTH OF FIELD "، =

ثم نحتاج إلىٰ آلة للتعرف علىٰ الحروف المكتوبة ليترجم لنا عن المقصود بها، وكذلك آلة إرسال دقيقة لنقل هذه الصورة من الكاميرا إلىٰ (جهاز التعرف علىٰ الحروف المكتوبة).

وفي كل تلك المراحل نحتاج إلىٰ جهاز التخزين المؤقَّت لهذه المعلومات، ثم جهاز التخزين الدائم الذي به تحفظ العمل النهائي، ولا تنس أيضا الطاقة التي ستفعِّل لنا كل هذه الأجهزة.

كل تلك العمليات تحدث في ثانية، بل في قدر لا يُذكر من الثانية من حيث لا تشعر وأنت تقرأ.

لعلك دُهِشت مما سبق مع بساطة الأمر، ولكني أدعوك لإبقاء الدهشة لما سيأتي، فالمسألة عميقة الغور وليست بهذه السذاجة، ولنقترب بالعدسة قليلا من أحد الأجهزة البشرية التي نستخدمها وهي العين حتىٰ نعرف عجائبها ومكنوناتها.

تبدو العين وكأنها عضو صغير سهل التركيب، إلا أنها في الحقيقة من أعجب الأجهزة وأعقدها في الإنسان، فهي في غاية الدقّة والبراعة؛ فإن مكوناتها تصل إلىٰ ٤٠ مكون، لو تغير مكان واحد منها فضلا عن فقدانه لتعطلت العين!

= وتباين الألوان "CONTRAST"، والإضاءة "LIGHT" وغيرها) وكل هذه تحتاج إلىٰ وقت وجهد وخبرة لتعلمها، ولكن كل ذلك بالنسبة لعين الإنسان يتم تلقائيا بتدبير الله وفضله سبحانه في أجزاء من الثانية دون أي إعداد مسبق!

ولسنا نستطيع الإحاطة بتلك المكونات في هذه العجالة، ولكن حسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق.

فمثلًا المكونات الموضوعة لحمايتها؛ بدءًا من تجويفه الغائر في الجمجمة والوسائد الدهنية التي تحميها، ثم الستائر الذكية (الأجفان) التي تظل مفتوحة دون إرهاق، وتغلق تلقائيا عند المخاطر، وفي أثناء ذلك تعمل الفلاتر آليا (الرموش) علىٰ منع دخول الأتربة! بينما تقوم الدموع بتنظيف شامل وتُنقِّيها من الميكروبات بشكل دوري!

ولا يحتاج الإنسان إلىٰ البحث عن مكان مناسب للنظر، فقد وضعت العينان في أفضل مكان لتعطينا أكمل رؤية[1]!

ثم إن أردت أن تعجب فاعجب من الشبكية التي تحوي مليارات العصي والمخاريط؛ وبها تُميِّز العين بين كل لون وآخر مهما كان دقيقًا[2]؟

---

(١) وهذا ما نجد أصحاب شركات الكاميرا يحاولون محاكاته وهي التي تسمىٰ بتقنية (3D)!

(٢) ينظر: مقالة مؤسس نظرية التطور حائر أمام تركيبة العين:
http://antishobhat.blogspot.com/2012/09/blog-post_26.html
و درس الوصول إلىٰ الإيمان بالله في العقيدة الإسلامية لـ د. محمد راتب النابلسي: http://www.nabulsi.com/blue/ar/te.php?art=314

هـذه العجائـب التـي لا تضـاهىٰ ولا تجـارىٰ أربكـت كبـار الملحدين ودعاة نظرية التطور، فـ(داروين) نفسـه، اعـترف بمنافـاة كـون هـذا التصـميم المـذهل لمكونـات العـين صـدفة أو مـن خلـق الطبيعة.

يقول داروين: "لكي يُفترض أنه مـن الممكـن أن تكـون العـين بكـل مـا فيهـا مـن أجهـزة فـذَّة مـن أجـل ضـبط الطـول البُـؤري للمسافات المختلفة، ومن أجـل السـماح بـدخول كميـات مختلفـة من الضوء، ومن أجل تعـديل الزيـغ الكُـروي واللـوني، قـد تكونـت عن طريق الانتخاب الطبيعي، فإن ذلك يبدو -وأنا أعترف بـذلك- كشيء مناف للعقل إلىٰ أعلىٰ درجة"[(١)].

ولكن هذا الإتقان والعمـق في التعقيـد لـيس مقتصـرا علـىٰ هـذا العضـو، بـل هـو دأب كـل جـزء في الإنسـان مهمـا دقَّ حجمـه وقـل وزنـه، بـل كـل جـزء مـن أجـزاء الكـون مـتقن ومعيَّـر بدقـة[(٢)]،

---

(١) أصل الأنواع لـ(داروين)، ترجمة مجدي المليجي (ص٢٩٣).

(٢) ولسنا بحاجة إلىٰ معرفة وجود الإتقان في الكون كله لنثبـت وجـود مـن أتقنـه، بل معرفتنا لإتقان أجزاء منه كاف في ذلك، وهذا هو منهج القرآن كمـا في قولـه تعـالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار:٦-٨]، وقوله تعـالىٰ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك:٣].

ففي أيِّ عِلم من علوم الطبيعة حدَّقت بعينيك تجد العجب بدءًا من الذرَّة وقوانينها مرورا بالفلك والفيزياء والكيمياء والأحياء، حتىٰ إنها أذهلت أساطين الملحدين وأرغمتهم علىٰ الاعتراف بهذا الإتقان والإحكام[١]، يقول الملحد الفيزيائي (ستيفن هوكنج): "معظم الثوابت الأساسية في نظرياتنا تبدو مضبوطة بدقة، بمعنىٰ أنها لو عدلت بمقادير بسيطة، فإن الكون سيختلف كيفيًّا، سيكون في حالات عديدة غير ملائم لتطورات الحياة"[٢].

ويقول عالم الفلك (آلن ساندیج): "إني مقتنع أن وجود الحياة بكل ما فيها من تنظيم في كل كائن من كائناتها الحية مركب بمنتهىٰ البراعة"[٣].

فإذا كان الكون بهذا الإحكام والإتقان، فالسؤال البديهي الذي يتبادر إلىٰ ذهن العاقل هو: من الذي خلقها وفطرها بهذه البراعة والدقة؟

---

(١) من الكتب التي تحدثت عن الإتقان: كتاب شفاء العليل وكتاب مفتاح دار السعادة لابن القيم، وكتاب الحكمة في مخلوقات الله ﷻ للغزالي، وكتاب العلم ودليل التصميم في الكون لعدد من المؤلفين الغربيين، وهم: (مايكل بيهي ووليام ديمبسكي وستيفن ماير).

(٢) التصميم العظيم لـ(ستيفن هوكنج) (ص١٩٢).

(٣) العلم ووجود الله لـ(جون لينكس) (ص٣٢٨).

والـدافع لهـذا السـؤال هـي الضـرورة العقليـة، فـإن الصـنعة المحكمة تدل بداهـة علىٰ الصـانع الخبيـر، هـذا هـو مقتضىٰ مبـدأ السـببية الفطـري[١]، ومـن المحـال أن يكـون هـذا الكـون المـتقن مجرد صدفة عنـد العقـلاء، وقـد شـهدت الضـرورة الرياضـية أيضـا باستحالة ذلك[٢].

إذن هذا الدليل مركب من دلالة الحس الـذي لا يجـد الإنسـان بـدًّا مـن تصـديقه، ومـن دلالـة المبـادئ العقليـة التـي فُطِـر الإنسـان عليها مذ ولادته.

فالإيمان بالله تعالىٰ ليست مسألة عاطفية تسليمية فحسب، بـل مسألة مبنية علىٰ دلالة الحس والفطرة والعقل.

---

(١) وللاستزادة عن المبادئ العقلية الأولية ينظر: مقـال دلالـة المقـدمات الأوليـة علىٰ وجود الله في موقع مركز سلف للبحوث والدراسات:
http://salafcenter.org/522

(٢) أثبت هذا الأمر كثير من علماء الرياضيات في العصر الحاضر، ومـنهم كريسـي موريسون في مثالـه (الـدراهم العشـرة)، وخلاصـته: لـو أخـذنا عشـرة دراهـم، ورقَّمناها بالتسلسل، ثم طلبنا من أحدهم إخراجها مرتبة، فإن احتمـال ظهـور الـرقم (١) يكـون بنسـبة ١: ١٠، وأمـا ظهـور الـرقمين (١، ٢) فبنسـبة ١: (١٠×١٠=١٠٠)، وأما ظهور الأرقام العشرة كلها مرتبة فبنسبة ١: ١٠ أس ١٠، ولـو أجرينا عملية السحب ليل نهار بحيث نسحب ورقة كل خمس ثـوان لاحتجنـا إلىٰ (١٥٠٠) سنة لكي يكون هناك احتمال واحد لسـحب هـذه الأرقـام العشـرة بالتسلسل الصحيح!! ينظر: العلم يدعو إلىٰ الإيمان (ص٥١).

أضف إلى ما سبق أنه دليلٌ قوي حضوره شديد تأثيره، فقد كان سببًا في رجوع كثير من الملاحدة عن قولهم، يقول (أنتوني فلو) أحد أكبر ملاحدة العصر الحديث عن سبب رجوعه عن الإلحاد وإقراره بالخالق: "لا شك أن ما كشفه العلم الحديث من معلومات هائلة في مجال قوانين الطبيعة ونشأة الكون، وكذلك نشأة الحياة وتنوع الكائنات الحية، قد أمد هذا البرهان -دليل الإتقان- بالكثير من الأدلة التي أعانتني كثيرا في الوصول إلىٰ هذا الاستنتاج"[1].

وحريٌّ بدليل هذه سماته علىٰ أهم مسائل الوجود أن تناله العناية الفائقة من القرآن الكريم؛ فإن المسألة كلما كانت أعظم كان دليلها أوضح وعناية القرآن بها أكبر.

فالقرآن قد تناول هذا الدليل بأساليب متنوعة؛ كدعوة الإنسان إلىٰ التأمل في نفسه؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨﴾ [الانفطار:٦-٨]، والتأمل في وسائل المعرفة الموهوبة له؛ ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، والتفكّر في إتقانه سبحانه لخلق هذا الكون، وتسخيره للإنسان؛ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ

(١) هناك إله لـ(أنتوني فلو) ضمن كتاب رحلة عقل لعمرو شريف (ص٨٣).

أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [يس:٧١-٧٣]، ويقول: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس:٢٤-٣٢]، وتحدي البشر أن يجدوا في صنعه خللًا، يقول تعالىٰ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الملك:٣، ٤][(١)].

وإضافةً إلىٰ كون هذا الدليل عقليًّا شرعيًّا مؤثرًا يمتاز أيضا بكونه سهل المقدمات قريب الفهم؛ ولذا كان حاضرًا عند العامة قبل العلماء[(٢)]، ومنها ما اشتهر من استدلال الأعرابي ببديع صنع السموات وأبراجها والأرضين وفجاجها علىٰ الله العليم الخبير،

---

(١) وللاستزادة من الأدلة الشرعية العقلية علىٰ ذلك ينظر: الأدلة العقلية النقلية علىٰ أصول الاعتقاد لـ د. سعود العريفي (ص:٢٦٥ وما بعدها).

(٢) وهذا من أوجه الاتفاق بين هذا الدليل ودليل الإبداع والاختراع، ومنها أيضا كونهما مستندين إلىٰ آثار الله تعالىٰ وخلقه، ويفترقان في أن الإبداع يعتمد علىٰ نشأة الكون في أول وجوده بينما الإتقان يعتمد علىٰ حالة الكون بعد وجوده، ينظر: مقال الإبداع والاختراع ووجود الله بمركز سلف للبحوث والدراسات.

واحتجاج الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مناظرته الشهيرة[١]، وكذلك الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ استدل باختلاف اللغات والأصوات والنغمات علىٰ خالقها، والإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ استدل بورق التوت ذات الطعم الواحد، الذي تأكله الدواب ثم كل واحدة تخرجه شيئًا مختلفًا، فبينما تخرجه بعضها إبريسمًا، تخرجه أخرىٰ عسلًا، وثالثة مسكًا، ورابعة تلقيه بعرًا، وأصله شيء واحد!

وأما الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فاستدل بخروج الحي من الميت، حيث قال: "هاهنا حصن حصين أملس، ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره، فخرج منه حيوان سميع بصير، ذو شكل حسن وصوت مليح"[٢].

---

(١) وهذه القصة المشهورة قد أوردناها في مقال سابق بعنوان: الإبداع والاختراع ووجود الله في موقع مركز سلف للبحوث والدراسات، وخلاصته أن أبا حنيفة سئل عن وجود الله، فقال: دعوني فإني أفكر في سفينة لا قبطان لها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتخترق الأمواج العظام حتىٰ تتخلص منها بنفسها. فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع!!

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٩٧)، وقد ذكر هذا الدليل طائفة من علماء السلف في كتبهم؛ كالخطابي والبيهقي وابن رشد وابن حزم والرازي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم من العلماء. ينظر: شموع النهار للشيخ عبد الله العجيري (ص١٦٧).

وختاما أخي القارئ الكريم:

أدعـوك إلىٰ مـا دعـا إليـه الشـاعر أبـو نـواس حـين سـئل عـن الله ﷻ، فقال:

تأمــل في نبــات الأرض وانظــر ... إلــىٰ آثــار مــا صــنع المليــك

عيـون مـن لجـين شاخصـات ... بأحـداق هـي الـذهب السـبيك

علـىٰ قضـب الزبرجـد شـاهدات ... بــأن الله لــيس لــه شــريك[1]

فتأمَّل ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨][2].

= وظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث لـ د. سلطان العميري (٢/ ١٨٥).

(١) أورده أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي في كتابه (أحسن ما سمعت) (ص: ١٠).

(٢) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.

كَونٌ مناسبٌ للحياة!..

هل سألت نفسك يوما: لماذا الطعام والشراب والضوء والحرارة وكل مستلزمات الحياة متوفرة وموجودة لدينا؟ لماذا نحن علىٰ كوكب الأرض دون غيره من كواكب مجموعتنا الشمسية ومليارات كواكب الكون؟ ولماذا نجمنا هو الشمس دون غيره من مليارات النجوم؟ ولماذا هذا الكون علىٰ ما هو عليه بحجمه المتناهي؟ وماذا لو تغيرت بعض أنظمته الجذرية هل سيكون لنا مكان فيه؟ وهل كوننا مهيَّأٌ لاستقبالنا ووجودنا علىٰ متنه، أم أن الأمر مجرد صُدفة؟

اعتياد الشيء غالبا ما يقلل من أهميته وضروريته، ومع تقدم العلم واتساع معارفنا عن الكون صار حجم الكون المتناهي أمرًا تستصعبه بعض العقول، بل واتخذه البعض مبررًا لإنكار خالقه وادعاء وجوده صُدفة، وأصبح من أكثر الشبهات انتشارًا في الآونة الأخيرة مقارنة عمر الكون وحجمه المتناهي في الكبر بالإنسان وحجمه الذي لا يكاد يمثل شيئًا يذكر، مع دعوىٰ أهمية الإنسان ومركزيته في هذا الكون الفسيح دون غيره من المحيطات، **إذ كيف يكون الإنسان مميَّزًا ومركزيا في هذا الكون، مع أنه ماديًا = لا شيء تقريبًا إذا ما قارنَّاه بحجم الكون؟!**

وهذا ما أكده عالم الفيزياء الشهير الملحد (ستيفن هوكينج) حيث يقول: "الجنس البشري مجرد حُثالة كيميائية علىٰ كوكب متوسط الحجم، يدور حول نجم متوسط، في مجموعة طرفية، في واحدة من بين مئات مليارات المجرات، نحن أتفه من أن أتخيل أن الكون كله موجود من أجلنا، هذا يشبه قول أنك ستختفى لو أغلقتُ عيني"[١].

إن الناظر لهذه الأطروحة يجدها أطروحة أحادية النظرة لا حيادية، فهى تنظر للإنسان علىٰ المستوىٰ المادي فحسب – وهو أمر معتبر كونها تصدر من ملحد لا يؤمن سوىٰ بالمادة وحدها- لكن الواقع غير ذلك تمامًا، فنحن في حياتنا اليومية لم نجد أهمية الأشياء بناءً علىٰ حجمها المادي فحسب، فالفيل ليس أهم من النملة أو يتميز عنها بمجرد حجمه المادي، وليس النيتروجين الذي يمثل ٧٨٪ من الغلاف الجوي بأكثر أهمية من النيتروجين الذي يمثل ٢١٪ فقط، كما أن باقى الغازات ليست عديمة الأهمية؛ لأنها مجتمعة لا تمثل سوىٰ ١٪ من الغلاف الجوي[٢]،

---

(١) STEPHEN HAWKING, From an interview with Ken Campbell on the 1995, Reality on the Rocks: Beyond Our Ken

(٢) ينظر: http://www.windows2universe.org/earth/Atmosphere/overview.html

فكل من هذه الغازات له أهميته بالنسبة لوجودنا، وغياب أحد هذه الغازات أو اختلاف نسبتها عما هي عليه سيسبب أضرارًا بالغةً لنا وللحياة جميعًا على وجه الأرض، بل إن كثيرًا من الأشياء في حياتنا نراها أقل حجمًا لكنها أكثر تميزًا وأهميةً.

لنتحدَّث عن محور موضوعنا: الإنسان، فالإنسان خير دليل على ما نقول، فرغم حجمه المادي الصغير إلا أن كل ما حوله مسخرٌ له، فالأرض مسخرة له بكل ما عليها، والشمس والأفلاك مسخرة له..إلخ.

بيد أننا سنردُّ على صاحبنا المادي تنزُّلا بنفس المعيار الذي سلكه صاحبنا المادي، وهو النظر إلى الكون من ناحية مادية فقط، لنرى هل أنصف في أطروحته بنظرته أم لا؟! ولنجعل النقاش في نقطتين رئيستين:

أولًا: هل الإنسان شيء ضئيل حقًا بالنسبة لحجم الكون[(١)]؟

من يريد الحق عليه أن ينظر للأمر من جميع الجوانب، ولا يأخذ جانبًا لأنه يؤيد وجهة نظره ويترك آخر لأنه مخالف له؛ إذ ينظر غالب الماديين باستمرار إلى مقارنة حجم الكون واتساعه بحجم الإنسان.

---

(١) انظر: كتاب الصنع المتقن: دلالات الفيزياء على وجود الخالق، تأليف: مصطفى نصر قديح، مركز دلائل، الرياض، ٢٠١٧م، (ص: ١٣١-١٣٣).

لكـن حقيقـة الأمـر أن الكـون يشـتمل علـىٰ ثلاثـة مسـتويات وهي:

◈ المستوىٰ الضـخم الهائل (Super-Macro) الـذي دائمـا مـا ينظر إليه الملحد ويترك غيره، وهذا المستوىٰ تحكمه قوانين معينة = النسبية العامة.

◈ المستوىٰ العادي الطبيعي (Macro) وهو ما نتعامل معـه طبقًـا لأحجامنـا في حياتنـا العاديـة ولا نسـتغرب نتائجـه، وهـو مـا ينطبـق عليه قوانين نيوتن أو الفيزياء الكلاسيكية.

◈ المستوىٰ الصغير -الذرة وما دونهـا (Micro)، وهـو مـا ينطبـق عليه قوانين الكـوانتم، ودائمـا مـا تزعجنـا نتائجـه، نظـرًا لاخـتلاف طبيعته عن طبيعتنا.

دعنـا ننظـر الآن لهـذه المسـتويات الثلاثـة ونقارنهـا بحجـم الإنسان، لنرىٰ حقيقة الأمر:

◈ طبقًا للمستوىٰ الضخم فإن حجم الإنسان لا يكاد يُذكر بالنسبة للكون واتساعه، وهـذا مـا ينظـر إليـه الملحـد دائمـا؛ لأنـه دائمـا مـا يؤيد وجهة نظره التي يريد أن يثبتها.

◈ طبقًـا للمسـتوىٰ العـادي فغالبـا لا يشـغلنا مقارنتـه بمقارنـة الإنسان، لأنهما تقريبا في تناسق من قبل الحجم.

◈ طبقًا للمستوىٰ [الميكرو] وهو ما يتجاهله الملحـد دائمـا، فـالأمر أن حجـم الإنسـان بالنسـبة لهـذا الحجـم المتنـاهي في الصـغر

أشبه كثيرا بحجم الإنسان بالنسبة لحجم الكون المتناهي في الكبر، فالإنسان بالنسبة لمستوىٰ الميكرو -الكوانتم- هو شيء عملاق جدا، والأجسام الكوانتية أشياء تافهة مقارنة مع حجم الإنسان، ولتوضيح الأمر دعنا نأخذ المثال التالي:

انظر إلىٰ النقطة الموضوعة بين القوسين التاليين [.]، هل تعرف هذه النقطة عبارة عن ماذا؟

يحتوي حبرها علىٰ نحو مائة مليار ذرة من الكربون.

ولكي ترىٰ (ذرة واحدة) منها بالعين المجردة لا بد أن تكبِّر النقطة حتىٰ يصل قطرها إلىٰ ١٠٠ متر.

لكن لكي ترىٰ (نواة الذرة)، لا بد أن تكبر النقطة حتىٰ يصل قطرها إلىٰ ما يعادل قطر كوكب الأرض.

ولترىٰ (الكوارك) لا بد أن تكبر النقطة حتىٰ القمر، ثم تستمر في التكبير لضعف هذه المسافة عشرين مرة.

وبالتالي: فإن الإنصاف يقتضي النظر للأمر من جميع الجوانب، والشكل (أ) يعبر عن المستويات التي تحدثنا عنها بالأعلىٰ، ويبين جيدًا حجم الإنسان الحقيقي في هذا العالم. وهي صورة مأخوذة من كتاب "فيزياء الجسيمات": مقدمة قصيرة جدًّا لـ(فرانك كلوس) حيث تصف الصورة: مقارنات بين النطاق البشري وما وراء الرؤية الطبيعية علىٰ النطاقات الصغيرة والمسافات البالغة الكبر.

بالتالي يتضح لنا أن القول بأن حجم الإنسان -المادي- شيء تافه بالنسبة لحجم الكون هو مجرَّد افتراء مبني على نظرة أحادية تفتقر إلى الإنصاف.

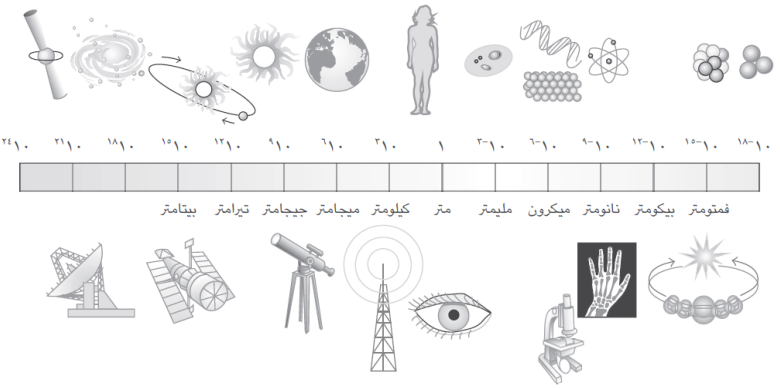

شكل (أ)

مقارنات بين النطاق البشري وما وراء الرؤيا الطبيعية

على النطاقات الصغيرة والمسافات الكونية الشاسعة

۞ ۞ ۞

ثانيا: لماذا الكون كبيرٌ هكذا؟ هل هو أمر عبثي؟ أم صُنع مُتقن يناسب وجود الحياة؟

لعل الاكتشافات العلمية نفسها صارت هي التي تجيبنا علىٰ هذا السؤال؛ إذ تبين خلال العقود الماضية أن عمر الكون الكبير وحجمه الفسيح لم يكن عبثًا، وإنما هو أمر معتبر ليسمح للإنسان بالوجود، حيث تشير أحدث القياسات إلىٰ أن عمر الكون حوالي ١٣.٧٣ مليار سنة[١]، قد يبدو هذا وكأنه وقت طويل من وجهة نظر شخص عادي، ولكن علماء الفلك يعتقدون خلاف ذلك، من وجهة نظر فلكية فإن ١٣.٧٣ مليار سنة تمثل الحد الأدنىٰ من الوقت اللازم لإعداد منزل للبشرية[٢].

علىٰ مدار نصف قرن مضىٰ توصل الفيزيائيون النظريون إلىٰ سلسلة من الاكتشافات تشير جميعها إلىٰ وجود مجموعة ثوابت معينة في الفيزياء تمتلك قيما محددة وموجودة بشكل استثنائي، بحيث تسمح بوجود كونٍ مُهيَّأٍ لاستقبالنا ولحياتنا عليها.

فخلال العقود الأربعة الأخيرة اكتشف العلماء ظاهرة جديدة تُدعىٰ "Fine Tuning" أي الضبط الدقيق، حيث وجد العلماء أن كوننا يحتوي علىٰ ثوابت وقيم أولية لا يمكن أن تتغير،

---

(١) Planck Collaboration (2015). "Planck 2015 results. XIII. Cosmological parameters (See PDF, page 32, Table 4, Age/Gyr, last column)." https://arxiv.org/abs/1502.01589

(٢) E. Komatsu et al., "Five–Year Wilkinson Anisotropy Probe (WMAP) Observations: Cosmological Interpretation," Astrophysical Journal Supplement Series (2008): in press

وإلا انعـدم الكـون واسـتحال وجـود الحيـاة عليـه، وبسـبب هـذه الملاحظـات فقـد ظهـر مبـدأ جديـد لـدىٰ علمـاء الكونيـات يُدعىٰ بالمبدأ الإنساني "مبدأ التسخير"، حيـث تشـير «النظريـة الإنسـانية» إلـىٰ أن «الثوابـت» الأساسـية في الفيزيـاء هـي السـر خلـف الكـون الداعم للحياة.

ولذا فقد أدت هذه الاكتشافات لصياغة مصطلح جديد يُدعىٰ «بالمبـدأ الإنسـاني» (*The Anthropic Principle*) وهـو مشـتق مـن الكلمة اليونانيـة (*Anthropos*)، والتـي تعنـي «إنسـان». وينصّ هـذا المبدأ علىٰ أنه إن لم يكن الكون مناسبًا للحيـاة... لمـا اسـتطعنا أن نكون هنا ونتحدث حـول ذلـك، فالحيـاة موجـودة في الكـون؛ لأن الشروط وُجدت بحيـث تجعلهـا – الحيـاة – ممكنـة، نعـم فـالكون بكـل مكوناتـه وثوابتـه الكونيـة مهيـأ لاسـتقبال الحيـاة ... الحقيقـة الواضحة بخصوص الثوابت الكونية تؤكد علىٰ أنها صُممت بعناية تتيح الحياة وبمنتهىٰ الضبط المدهش[١].

والذي يعني أن الكون وكل ما فيـه مسـخرٌ لاسـتقبال الإنسـان، فيبدو أن هذه القوانين مضبوطة بدقة؛ بحيـث تسـمح بوجـود العمليـات الكيميائيـة المعقـدة ... ومـن ثـم بوجـود الحيـاة البشـرية في النهايـة،

---

(١) Stephen Hawking. A Brief History of Time, Bantame press, London, 1988, P. 121–125

فلو كانت قوانين الكهرومغناطيسية والفيزياء النووية مختلفة اختلافًا طفيفًا عما هي عليه.. لكانت العمليات الكيميائية والحيوية مستحيلة[١].

ويعبر العالم الشهير مايكل دينتن (Michael J. Denton) عن هذا الأمر قائلًا: "لم يتصور إنسان أن أية نظرية أو فكرة أخرىٰ علىٰ الإطلاق يمكنها أن تعْدِل في جراءتها وقوتها هذا التأكيد القوي= أن كل السماوات المرصعة بالنجوم، وأن كل أنواع الحياة، وأن كل خاصية من الواقع موجودة كي تخلق موطنا مناسبا للبشرية"[٢].

إن الكون الذي نعيش فيه لم يُخلق عبثًا، ولم يكن اتساع حجمه هباءً، وإنما هو أمر ضروري ليناسب وجود حياة، فقد تميز كوننا بالعديد من العوامل التي تأخذ قيما محددة ودقيقة، والتي تبدو وبشكل ملحوظ مضبوطة لجعل الحياة علىٰ الأرض ممكنة.

فعلى سبيل المثال: يجب أن يكون عمر الكون كبيرًا بما فيه الكفاية؛ ليسمح بتشكيل المجرات والنجوم والكواكب، والجيل الثاني والثالث من النجوم، والتي تسمح باندماج الكربون

---

(١) بيتر كولز: علم الكونيات، مقدمة قصيرة جدّا، ترجمة: محمد فتحي خضر، ط. هنداوي، القاهرة، ٢٠١٥م، ص (١٢٥).

(٢) Michael J. Denton. 1998. Nature's Destiny: How the Laws of Biology Reveal Purpose in the Universe. New York: The Free Press. P. 3–4

والأكسـجين حيـث ينتجـان بواسـطة الانفجـارات المبكـرة للنجوم[١]. فخلال أول ١٥٪ من عمر الكون، وهي فترة أكثر من ٢ مليار سنة استطاعت النجوم أن تتكوَّن، ولكن لم يكن هناك ما يكفي من الغبار والصخور؛ لتتكوَّن الكواكب الأرضية[٢]، فعمر الكون لا يمكن أن يكون عشوائيا[٣].

إذن يجب أن يكون حجم الكون وعمره كبيرين بما فيه الكفاية، فنحن بحاجة إلىٰ كون قديم بما يكفي لظهور الجيل الثاني من النجوم إلىٰ حيز الوجود، ثم من أجل كواكب لتمتلك حياة مستقرة لفترة طويلة بما فيه الكفاية حتىٰ يمكن أن تتواجد حياة ذكية، وهكذا يجب أن يكون الكون بحوالي ١٥ مليار سنة ليسمح للحياة بالتواجد[٤].

إننا لو تتبعنا هذا الأمر علىٰ كافة الأصعدة، فسنجد أن لكل شيء حولنا أهمية بالغة تساهم بشكل مباشر أو غير مباشر

---

(١) **New evidence** for anthropic theory that fundamental physics constants underlie life–enabling universe, January 16, 2015. [http://phys.org/news/2015–01–evidence–anthropic–theory–fundamental–physics.html] [http://goo.gl/MSb4kX]

(٢) **Peter Ward** & Donald Brownlee: Rare Earth, Why Complex Life Is Uncommon in the Universe, Copernicus Books, 2000, p39

(٣) **Dicke, R. H. (1961).** "Dirac's Cosmology and Mach's Principle". Nature. 192 (4801): 440–441

(٤) J Gribbin and M Rees, Cosmic Coincidences. (Black Swan, 1991).

في وجودنا واستمرار الحياة على الأرض، العجيب أن جهل البعض بخصائص وصفات بعض الظواهر الكونية يجعله دليلا على عدم أهميتنا، أو على وجود الكون عبثًا، مع أن هذا مخالف للواقع وللمكتشفات العلمية، وكأن عدم العلم = علما بالعدم! فبعضا من هؤلاء جعل عدم علمه بتسخير الكون وتيسيره حتى يناسب وجود حياة، علما بعدم وجود ذلك وانتفاءه.

إن مبدأ التسخير هو مبدأ إيماني بالمقام الأول، وقد أثبته العلم مؤخرا، ولمثل هذا الأمر يشير الفلكي سير مارتن ريس قائلا: "كوننا ضخم جِدًّا، وهو ما يبدو في البداية كدليل على عدم أهميتنا في المخطط الكوني، في الواقع: إنه مُستلزَم (ضروري) لوجودنا، هذا لا يعني عدم إمكانية وجود كون أصغر من كوننا، ولكن لا يمكننا الوجود فيه"[١].

فهناك اتفاق عام بين علماء الفيزياء وعلماء الكونيات الآن بأن الكون في نواحيه المتعددة «تم ضبطه بدقة» لأجل الحياة[٢].

ويلخص هذا كله عالم الفيزياء الشهير (بول ديفيز) **قائلا**: "لا يمكنني أن أؤمن بأن وجودنا في هذا الكون مجرد دعابة قدر،

---

(١) Martin Rees (2000). Just Six Numbers: the deep forces that shape the universe. London: Weidenfield & Nicolson p. 9–10

(٢) Paul Davies, "How bio–friendly is the universe?" International Journal of Astrobiology, vol. 2, no. 2 (2003): 115

أو حـادث تـاريخ، أو مجـرد صـورة عرضـية في الـدراما الكونيـة العظيمة"[١].

وهذا كله هو ما أكده القرآن الكريم في كثير من آياته عن حقيقة مبدأ التسخير، فالله خلق الإنسان وكرَّمه علىٰ كثير من مخلوقاته، وسخَّر له السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم، وهيَّأ له أسباب الحياة علىٰ الأرض واستمرارها، فسخَّر له البحار والأنهار والدواب وكثير ممن خلق، يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣]، وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض، ولما أودع الله فيهما من الشمس والقمر والكواكب والثوابت والسيارات وأنواع الحيوانات وأصناف الأشجار والثمرات وأجناس المعادن وغير ذلك مما هو مُعدٌّ لمصالح بني آدم ومصالح ما هو من ضروراته، فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته وأن تتغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه، وكل ذلك دال علىٰ أنه وحده المألوه المعبود الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاءوا به، فهذه أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريبًا ولا شكًا[٢]، ولو ظللنا نعدد ما سخره الله لنا

---

(١) Paul Davies, The Mind of God, New York: Touchstone, 1992, p. 232

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الشيخ عبد الرحمن السعدي، ص: ٩٣٦. سورة الجاثية: آية ١٣.

ولضمان بقائنا علىٰ الحياة ما استطعنا إلىٰ ذلك سبيلًا[١].

فإنك إذا تأملت هيئة هذا العالَم ببصرك، واعتبرتها بفكرك، وجدته كالبيت المبني، المعَدُّ فيه ما يحتاج إليه ساكنه من آلة وعتاد، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منضودة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وضروب النبات مهيأة للمطاعم والملابس والمآرب، وصنوف الحيوان مسخرة للمراكب، مستعملة فِي المرافق، والإنسان كالمملّك للبيت، المخول فيه، وفِي هذا كله دلالة واضحة علىٰ أن العالَم مخلوق بتدبير وتقدير ونظام، وأن له صانعا حكيما تام القدرة بالغ الحكمة[٢][٣].

(١) انظر الآيات الآتية علىٰ سبيل المثال لا الحصر وتفسيرها [البقرة: ١٦٤، الأعراف: ٥٤، النحل: ١٢-١٤-٧٩، الأنبياء: ٧٩، الحج: ٣٦ -٣٧ -٦٩، ص: ١٨-٣٦، ....إلخ].

(٢) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في "بيان تلبيس الجهمية" (١/ ٥٠١) بقوله: "وقد ذكرنا ما ذكره الخطابي من كراهة طريقة الأعراض، وأنها بدعة محظورة، وقد قال في أوائل كتابه "شعار الدين"، ثم ذكر في (ص: ٥٠٦) ما ذكره البيهقي عن الخطابي".

(٣) إعداد: مصطفىٰ نصر قديح.

الإرادةُ الحرَّة ووُجودُ اللّه

هل تشعر -أخي القارئ- بحريتك في أن تقرأ مقالتي هذه، وأن تنتقل إلىٰ أي سطر منها، أو أن تُعرض عنها كليةً، أو أن تنتقدَني وتكتب لي ردًّا عليها، أو أن تحفظها في مفضلتك؟ أو ما شئت من الخيارات؟!

لا جرَم ستقول: نعم، أشعر بحرية تامة في اختيار أيٍّ واحد من ذلك بفطرتك وسَجِيَّتك، ولكن الأمر يختلف عند الملاحدة المنكرين لوجود الله تعالىٰ.

فالمرء منا يشعر فطرةً بحريته في أن يفعل ما يشاء، وأن ثمة فرقًا بينه وبين الجمادات، فباستطاعته أن يكتب كتابًا، أو يرسل رسالةً، أو يقود سيارةً، ويدرك أنَّ تلك الأفعال تحصل بإرادته وقدرته، ويفرِّق بين هذه الأفعال والأفعال الصادرة منه اضطرارًا، أو التي تسمىٰ (لا إرادية)؛ كنبضات القلب، وجريان الدم في عروقه.

وذلك أن الله ﷻ الذي خلقنا، هو الذي كرَّمنا بأن أعطانا الإرادة والاختيار من بين سائر مخلوقاته، بعد أن عرضها علىٰ كل المخلوقات فلم تُطق تحمُّلها؛ كما أخبر الله تعالىٰ عن ذلك بقوله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا

﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب:٧٢]، وسرُّ تحمُّل الإنسان لهذه الأمانة هو طمعه في فضل الله ومَنِّه سبحانه، فالله تعالىٰ رغَّبنا في الصلاح والإيمان؛ فجعل لمن يختار ذلك جنات الخلد والرضوان؛ وبذلك ينجلي كمال فضله وإحسانه ومحبته، وحذَّرنا من الفساد والكفران؛ وجعل جزاء من اختار ذلك السعير والخسران؛ وبذلك يتبين كمال عدله وحكمته، كما دلَّت عليه الآية التي بعدها؛ ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٣].

فواعجبًا من كمال قدرته ﷻ؛ الذي أعطىٰ عباده القدرة والاختيار؛ ليختاروا هم عبادته سبحانه وينالوا عظيم فضله وكرمه ﷻ، ولم يجعلهم مجبورين علىٰ عبادته؛ فإن "أمر الله أعظم من أن يجبر ويقهَر، ولكن يقضي ويُقدِّر ويخلق ويجبل عبده علىٰ ما أحب"(١).

وبهذا ينسجم الايمان بالله ﷻ مع نظام الكون وإرادة الإنسان الحرة، وتتواءم الفطرة مع الواقع والعقل، ويسير الفكر والسلوك سيرًا متوافقًا، وتستقر النفوس قبل المجتمعات.

---

(١) مقولة للإمام الزبيدي رواها الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ ٧٧٥).

وأما عند إنكار وجود الله سبحانه، فإن الانسان يعجز عن تفسير هذه الظاهرة تفسيرًا منطقيًّا؛ ولذا يلجأ الملحدون إلىٰ إنكار الإرادة الحرة من أصلها، ويناقضون فطرهم وواقعهم بدعوىٰ أن الانسان مجبور علىٰ فعله، كما عبَّر عنه داعية الإلحاد الشهير (ريتشارد دوكنز) بقوله: "الشفرة الوراثية لا تكترث ولا تدري، إنها كذلك فقط، ونحن نرقص وفق أنغامها"، ويصرح بذلك الملحد (سام هاريس) الذي افتتح كتابه في هذا الموضوع (الإرادة الحرة) بقوله: "الإرادة الحرة هي وهم، نحن ببساطة لا نصنع إرادتنا، الأفكار والنوايا تنشأ من أسباب خلفية لا نعيها، ولا نملك سيطرة واعية عليها، نحن لا نملك الحرية كما نعتقد، في واقع الأمر الإرادة الحرة هي أكثر من وهم (أو أقل)"[1].

ويقول: "اختياراتي مهمة، وهناك طرق لاتخاذ قرارات أكثر حكمة، لكني لا أستطيع أن أختار ما أريد اختياره، وإذا ظهر أنني قادر علىٰ ذلك؛ كالعودة مثلًا للوراء لاتخاذ أحد قرارين فإنني لا أختار ما أختار أن أختاره؛ إنه تسلسل يفضي بنا دومًا للظلام"[2].

هكذا عند الإعراض عن الله ﷻ، يحل الظلام في عين الإنسان، ويدخل نفقًا ضيِّقًا مليئًا بالتناقضات، تناقض مع الفطرة، وتناقض مع الواقع، وتناقض مع العقل.

---

(١) الإرادة الحرة لـ (سام هاريس)، ترجمة: هيبة خطاب (ص٥).

(٢) المصدر السابق (ص٤٤).

فإنَّ الإنسان سويَّ الفطرة يستنكر نفي الإرادة الحرة عنه؛ لأن الكيان الإنساني لا يُتصور خلوه من الإرادة الحرة والشعور الفطري بها، بل ذلك أمر ممتنع؛ لكون الشعور والإرادة من أهم ركائز الحقيقة الإنسانية[١].

وأيضًا واقع حياة البشر يشهد بهذا الذي قررناه، فإننا نجد الأمم والمجتمعات تُسند الأفعال إلىٰ أصحابها وتُحمِّلهم كامل المسؤولية تجاهها؛ فيُمدح الإنسان ويُذم تبعًا لإرادته وأفعاله، وكيف تستقر حياة البشر وتستقيم إلا بهذا؟!

ولذا لا يَقبل أولوا الألباب الاعتذار عن الإجرام بدعوىٰ الجبر، بل لو اعتذر معتذرٌ بذلك، كان خارجا عن مسالك العقلاء، وزُجَّ في عِداد المجانين.

وهذا هو نهج القرآن؛ حيث يسندُ أفعال العباد إلىٰ فاعليها؛ كقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف:٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف:١٤٣]، ويبيِّن للناس الحقَّ من الباطل ويترك لهم حرية الاختيار؛ ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]، ويعلِّل ﷻ بأن الثواب والعقاب يكون علىٰ حسب العمل، فإن الجزاء من جنس العمل؛ يقول تعالىٰ في أهل الجنة: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى

(١) ينظر: درء التعارض (٨/ ٤٦٤)، وينظر: سيكيولوجية الطفل لعزيز سمارة وآخرين (ص: ٣٢-٣٣).

ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحاقة:٢٤]، ويقول تعالىٰ في أهل النار: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان:٤٩-٥٠]، وأوضحُ من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات:٣٧-٤١]، والنصوص القرآنية في هذا المعنىٰ كثير فليُتأمَّل.

وليس معنىٰ هذا إنكار خلق الله لأفعال العباد، وإنما نعتقد أن الله خلقنا وأعمالنا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات:٩٦]، ولكن ميّزنا عن سائر مخلوقاته بالإرادة الحرة، وزودنا بأدوات المعرفة؛ لنعرف سبيل الخير والشر، يقول تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد:٨-١٠]، ثم يجازينا ويحاسبنا علىٰ أعمالنا واختياراتنا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس:٧-١٠]، فالعبرة بما يختاره المرء ويريده؛ ولذلك لا يحاسب علىٰ ما أُكرِهَ عليه؛ كما في قصة عمار بن ياسر الذي أنزل الله فيه قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [النحل:١٠٦][(١)].

---

(١) رواه الحاكم(٢/ ٣٥٧)، والبيهقي(٨/ ٢٠٨ وما بعدها)، وصححه الذهبي، وذكر الحافظ ابن حجر اتفاق العلماء علىٰ أنها نزلت في عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ينظر: الإصابة (٢/ ٥١٢).

فلا تناقض بين القول بحرية الإرادة والإيمان بالقدر؛ كما علَّم النبي ﷺ ذلك للصحابة حين استشكلوا هذه المسألة بقوله: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»، وتلا قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩﴾ [الليل:٥-٩][(١)].

ولو تجاوزنا كون نفي الإرادة الحرة عن الإنسان مناقض لدين الإسلام والفطرة والعقل والواقع، وسلَّمنا بصحة قولهم جدلًا، فكيف نحل الإشكالات والمعضلات التي تنتج في ظل تبنِّي ذلك؟!

◈ كيف نردع المجرم ونعاقبه في المحاكم والشُّرَط مع أنه لا ذنب له، وإنما هو مجبورٌ علىٰ إجرامه؟!

◈ كيف يُكافأُ المحسن ويحتفىٰ به مع أن إحسانه ليس اجتهادًا منه، وإنما هو مجبورٌ عليه؟

◈ لم الامتعاض من وجود الشرِّ في العالم مع أنها مسألة حتمية مبرمجة ليس إلا؟

◈ ما الدافع للاشتغال بتحصيل العلوم والاجتهاد في سبيل تحقيق الأهداف، ما دامت المسألة محسومة والنتائج معروفة مسبقًا؟

---

(١) رواه البخاري (٤٩٤٩).

◊ بل لماذا يسعىٰ الإنسان في هذه الحياة ويكدُّ لتحقيق مآربه، فإن الأفضل علىٰ هذا أن يبقىٰ ساكنًا لا يتحرك!

◊ ولماذا يسعىٰ الملحدون إلىٰ نشر فكرهم والدعوة إليه بتحمُّس؛ مع أنه يعتقد أنه مجبور علىٰ إلحاده والمؤمن مجبور علىٰ إيمانه؟!

هنا أخي القارئ، تعلم أن المسألة لا تنتهي بمجرد إنكار وجود الله سبحانه؛ وإنما يتبعه إنكار أكبر البدهيات التي هي من أهم ركائز الكيان الإنساني.

وحينئذ انتظر الهروب من التكاليف والمسؤوليات، والخنوع إلىٰ الكسل والقعود عن بناء الحضارة والمجتمعات! والانجرار وراء الشهوات والملذات! بل وتشريع الجرائم والقبائح والمستقذرات! وإبطال القوانين العامة وهدم المجتمعات!

ولا استقامة لحياة الإنسان إلا بالإيمان برب الأرض والسماوات ﷻ[1].

---

(١) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.

الإرادَةُ الغَائِيةِ ووُجودُ اللّه

يتميز الكائن البشري عن كل المخلوقات ببحثه وتساؤله عن الأسئلة الوجودية الكبرىٰ:

من أين جاء الإنسان إلىٰ الكون؟

وما الغاية من وجوده؟

وإلىٰ أين المصير؟

تلك الأسئلة التي أجهدت العقول وأشغلت الأناسي علىٰ مر العصور، وأكثر هذه الأسئلة إلحاحًا علىٰ الإنسان هو السؤال عن غاية وجوده هو؟

فإن كل إنسان يجد من نفسه ضرورة أن لوجوده غاية، وأنه وُجد لهدف، وإن كان الإنسان لا يرضىٰ لعقله بأن يتخيَّل صناعة جهاز صغير بلا فائدة، فكيف يُعقل أن ترضىٰ نفسه بالقول بأن لا فائدة من وجوده!

ذلك أن الإنسان لا ينفك عن الإرادة والهمِّ السابقين للحركة؛ كما أخبر النبي ﷺ: «**أصدق الأسماء حارثٌ وهمَّام**»[1]،

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٩٥٢) وصححه الألباني.

ثم لا بد أن تنتهي إرادات الإنسان إلىٰ أمر مراد لنفسه هو منتهىٰ الإرادات، فهذه هي الإرادة الغائية.

ولعل المقصود يتضح إذا ما تأملنا هذا الحوار:

كان أحد الطلاب ينام مبكرًا فسأله زميله، لماذا تنام مبكرًا؟

فأجاب: لأستيقظ نشيطًا.

فسأله: ولم تريد أن تستيقظ نشيطًا؟

فأجاب: لأستوعب الدروس.

فأعاد: ولم تريد استيعاب الدروس؟

فأجاب: لأتفوق وأتخرج من الابتدائية؛ لأني أريد أن أصبح دكتورًا جامعيًّا.

فسأله: ولم تريد أن تصبح دكتورًا جامعيًّا؟

فأجاب: لأعمل مدرسًا بالجامعة وأجمع المال.

فسأله: ولم تريد جمع المال؟

فأجاب: لأتزوج...

وهكذا تستمر تلك الإرادات الإنسانية المرادة لغيرها، ولكن لا بد أن تنتهي إلىٰ مراد لنفسه، لتكون هي الإرادة الغائية من كل تحركاته.

فإذا كان الإنسان لا بد له من إرادة غائية يكون المراد فيها مرادًا لنفسه، فهذا هو الإله الذي تألهه القلوب، وتهوي إليه النفوس، وتقصده الفطر حين الكروب.

إذن "لا بد من إله مُعينٍ، محبوبٍ لذاته من كل حيٍّ، ومن الممتنع أن يكون هذا غير الله، فلزم أن يكون هو الله، وأن كل إنسان ولد على محبته سبحانه وتعالى"(١).

ولا إشكال عندنا نحن المؤمنين بالله تعالى في هذا، فالشعور الفطري بالغائية متوائم مع الغاية التي خُلقنا لها؛ لأننا نؤمن بأن الله خالقنا ورازقنا ومدبر شؤوننا؛ ومن كان كذلك فهو المستحق للعبادة؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

هذه الغاية التي خلق الله سبحانه الجن والإنس لها، ألا وهي عبادته وليس ذلك لحاجة؛ وإنما لتتجلى صفات كماله في خلقه، من رحمته ومغفرته ومحبته سبحانه وتعالى.

ذلك أن الله سبحانه وتعالى ميز الإنسان عن غيره من المخلوقات بحرِّية الإرادة بين الطاعة وعدمها، وتلك هي الأمانة التي أكرمه الله بتحمُّله إياها؛ فإنْ أحسن أحبه الله ورحمه؛ فظهرت محبته ورحمته، وإن أساء جازاه؛ فظهر عدله وحكمته، وإن استغفر غفر له؛ فظهرت مغفرته وعفوه(٢).

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨/ ٤٦٤).

(٢) ينظر: تفسير السعدي (ص: ٨١٣)، ومما يدل على ذلك الحديث القدسي الذي أورده مسلم في صحيحه برقم (٢٥٧٧) «**يا عبادي، إنكم تخطئون** =

وسرُّ تحمُّلِ الإنسان لهذه الأمانة إدراكُه عظيمَ شرفِ ذلك عند الله ومحبَّته سبحانه لذلك، وعلمه جزيل ثواب الله تعالىٰ؛ فتحمَّلها ليظفر بهذه المنازل والدرجات العلىٰ، فكان أنْ كرَّمه الله علىٰ المخلوقات، وأسجد له ملائكته، وخصَّه بدخول جنته سبحانه[1].

إذن الغاية من وجود الإنسان هي خضوعه لربه باختياره، متناغمًا مع خضوع المخلوقات كلها الذي ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤].

ولتتحقق هذه الغاية أرسل الله سبحانه الرسل مبشرين ومنذرين بهذه القضية الجوهرية؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، "ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلىٰ تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد"[2].

= **بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي، فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئا...».**

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢١٦)، و(٦/ ٤٨٨)، وتفسير الثعلبي (٧/ ٦٠)، أضواء البيان للشنقيطي (٥/ ٣٦٣).

(٢) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٩/ ١٠٠).

وهذا الشعور الفطري بالغائية يرتقي بالإنسان ويرفع قيمته بعيدًا عن الإغراق في أوحال المادية البهيمية، ويحميه من جعله مجرد سلعة كغيره من السلع؛ لتكون كرامة الإنسان مقدسة(١).

"وقد أنكر تعالىٰ علىٰ الإنسان حسبانه وظنه أنه يترك سدىٰ، أي: مهملا، لم يؤمر ولم ينه... قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة:٣٦]... وقد نزه تعالىٰ نفسه عن هذا الظن الذي ظنه الكفار به تعالىٰ، وهو أنه لا يبعث الخلق ولا يجازيهم منكِرًا ذلك عليهم في قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون:١١٥، ١١٦]"(٢)، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

ولكن المنكر لوجود الله ﷻ لا يملك تفسيرًا مقنعًا لهذا الشعور الفطري بالغائية، بل ولا يبحث عن غاية وجوده، بل لا يأبه ملاحدة العصر عن وصف من يبحث عن ذلك بالساذج والسخيف(٣).

---

(١) وفهم هذا المعنىٰ مما زاد إقبال غير المسلمين إلىٰ الإسلام، ينظر: http://www.pal-tahrir.info/hizbuttahrir-at-world/2440----html

(٢) أضواء البيان للشنقيطي (٧/ ٤٤٦)، وينظر: مدراج السالكين لابن القيم (١/ ٩٠).

(٣) نقلًا عن: شموع النهار لعبد الله العجيري (ص٧٦)، وقد عُرف ذلك عن داعية الإلحاد الشهير (ريتشارد دوكنز).

ولـمَ يبحـث عـن غايـةٍ لوجـوده، وهـو يعتقـد أنـه مجـرد صـدفة عمياء لا معنىٰ لها!!

ولنا أن نتساءل هنا من السخيف، هل السخيف هـو مـن يتـواءم مع أخصِّ سمات الإنسان ويبحـث عـن غايتـه؟ أم مـن يحـاول نـزع هذه السمة عنه؟

فإن "الإنسان هو الكـائن الوحيـد الـذي يطـرح تسـاؤلات عمَّـا يُسـمَّىٰ العلـل الأولـىٰ، وهـو لا يكتفـي بمـا هـو كـائن، وبمـا هـو معطىٰ...وهو الكائن الوحيد الذي يبحث عن الغرض مـن وجـوده في الكون"(١).

ولكن الملحد يريد أن يجعـل الإنسـان ذا بعـد واحـد فحسـب؛ بحيث ينغلق علىٰ المادة والحس ويعـترف بـالظواهر فقـط، ثـم مـا دون ذلك لا يجب أن نأبه له!!

حقًّـا إن "هـؤلاء الـذين لا يتسـاءلون عـن صـدفة وجـودهم، يعانون من نقص عقلي"(٢).

---

(١) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان لـ د.عبد الوهاب المسيري (ص١٢).

(٢) مقولـة للفيلسـوف (آرثـر شـوبنهاور) أوردهـا الفيلسـوف الأمريكـي (جـون هولت)، في حديث له علىٰ منصة (TED) بعنوان (لماذا الكون موجود؟) https://www.youtube.com/watch?v=QXIRs8ZPibI

وإن سلَّمنا جدلًا بأن لا غاية من وجود الإنسان، فما الفرق بين وجوده وعدم وجوده في ظل عدم وجود غاية منه؟

الجواب الحتمي الذي يعترف به الملحدون أن لا فرق؛ لأنه مجرد صدفة فلا معنىٰ لوجوده!!

يا للعجب! كيف يتصور الإنسان وجود ذاته بلا غاية مع أنه لا يتقبل وجود آلة من صنع البشر بلا غاية؟!

بهذا الاعتقاد ستكون حياتنا بلا معنىٰ ولا قيمة! وهذا ما وعاه رواد المدارس الفوضوية والعدمية والعبثية، فانتهوا إلىٰ مذاهبهم تلك.

أضف إلى ذلك أن الإنسان بهذا الاعتقاد يفقد وعيه بذاته، ولا يفرق بينها وبين الآخر، وهذه معضلة من معضلات الملحدين المؤرقة، وهو ما يعترفون به، يقول أحدهم: "أعتقد أن فكرة أننا موجودون مجرد وهم، فكرة أن هناك (أنا) في الداخل تقوم باتخاذ القرارات والعمل وهي مسؤولة هو مجرد وهم كبير ضخم، الذات التي نبنيها مجرد وهم؛ لأنه في الحقيقة لا وجود إلا للدماغ وكيميائها وهذه الذات لا وجود لها، وهي لم توجد"[(١)].

(١) نقلا عن: ميليشيا الإلحاد للشيخ عبد الله العجيري (ص ١٧٢).

فالأمر لن ينتهي عند إنكار وجود الله ﷻ، بل يرجع الإنسان بالشك في وجوده هو نفسه، فتأملها أيها الفطن اللبيب.

وخلاصة القول: أن الإيمان بالله ﷻ يتواءم مع الشعور الفطري الكامن في داخل الإنسان بالغائية، وأما إذا أنكر الإنسان وجود خالقه لم يجد غايةً من وجوده، ولا معنىٰ لحياته، وظل في صراع مع فطرته، وتناقضٍ مع أخص أسئلته، وشكٍّ حتىٰ في وجود نفسه!![1].

(١) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.

النَّزعة الأخلاقيَّة ووُجودُ اللّه

مِـن المعـاني الكامنَـةِ في الـنَّفسِ البشـريَّةِ شـعورٌ فطـريٌّ يجـدُه الإنسان من نفسِه يميِّز به بين الخيرِ والشرِّ، والحسَنِ والقَبيحِ، وهو ما يسمَّىٰ بالنَّزْعَةِ الأَخلاقيَّة.

فمثلًا يُدرك الإنسان ضرورةً من نفسه أنَّ العـدل خيـرٌ وحَسَـنٌ، وكـذلك الصِّـدق خيـرٌ وحسـنٌ، وأنَّ عكسَـهما الظُّلـمُ والكـذبُ، فالإنسان يُميِّز بفطرتِه بين الخير والشرِّ، والعدلِ والظلمِ، والصدقِ والكذبِ، وبدون هذا يُعدُّ المرءُ من الأنعام لا من الأنام[1].

وممَّـا يـدلُّنا عـلى فطريـةِ هـذه النَّزْعَـة الأَخلاقيَّـة، أنَّ الـنفسَ البشريَّةَ مفطورةٌ علىٰ حبِّ الكمال وكراهيةِ النَّقص، وحقيقةُ الخير

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١١/ ٣٤٧)، مدراج السالكين لابن القيم (١/ ٢٣٠)، المعرفة في الإسلام للدكتور عبد الله القرني (ص: ٢٦٥)، سؤال الأخلاق لطه عبد الرحمن (ص: ٥٣ – ٥٤)، وقد زعمَ الفلاسفة اليونانيون بأن فضائل الأخلاق محصورة في العلم والعفة والشجاعة والحلم والعدل، وناقشهم ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في مقولتهم تلك، وبيَّن الحق منها والباطل، ينظر: الجواب الصحيح (٤/ ١٠٧ وما بعدها)، الرد علىٰ المنطقيين (ص٤٥٤).

إنما هو الاتِّصافُ بالكَمال؛ ولذا تُحبُّه النفوسُ، وحقيقةُ القُبحِ الاتصافُ بالنَّقص؛ ولذا ينفرُ منهُ الإنسانُ فطرَةً[١].

ثُم إنَّ مجرَّدَ إدراكِ الإنسانِ الحقَّ والكمالَ يقتضِي اعتقادَه وحبَّه، ومجردَ إدراكِ الباطلِ والنَّقصِ يقتضِي إنكارَه وكَرَاهيته، ولا يحْتاجُ معَهَا الإنسَانُ إلىٰ اسْتدلالٍ؛ ذلكَ أنَّ الإنسانَ لو خُيِّر بين الصِّدق والكذِب مثلًا، ولم يترتَّب علىٰ اختيَارِه لأحدِهِما مضرَّةٌ اختارَ الصِّدق؛ لوُجُودِ قوةٍ طاقة في نفسِ الإنسانِ تقتضِي اعتِقَادَ الحقِّ وإرادةَ النَّافعِ بمجرّد إدراكِهمَا دون اسْتدلالٍ[٢].

أضِفْ إلىٰ ما سبقَ أنَّ القولَ بفطريةِ النَّزعة الأَخلاقيَّة هو مُقتضَىٰ الضَّرورةِ النَّفسِيَّةِ؛ فإنَّ الإنسانَ يجدُ من نفسِه ضرورةَ التفريقِ بين المتقابلاتِ من الأخلاقِ؛ كالعدْلِ والظُّلمِ والصِّدقِ والكذِبِ، فَنسبةُ هذا إلىٰ فطرةِ الإنسانِ كنِسبة الحُلوِ والحَامِضِ إلىٰ ذَوْقِه ورائحةِ المسكِ والنَتَنِ إلىٰ شمِّه[٣].

وإذا تقرّرت فطريَّةُ النَّزْعَة الأَخلاقيَّة، فإنَّ النفسَ البشريّةَ المفْطُورةَ علىٰ حبِّ الاستطلاعِ، تتطلَّبُ فاطرًا لها.

---

(١) ينظر: المعرفة في الإسلام للدكتور عبد الله القرني (ص: ٢٧١).

(٢) درء التعارض لابن تيمية (٨/ ٤٥٦)، وما ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ من (قوة في نفس الإنسان...) هو ما يسميه فلاسفة الأخلاق (الحاسة الخلقية أو الضمير)، ينظر: المعرفة في الإسلام للدكتور عبد الله القرني (ص: ٢٧٥).

(٣) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٣٠).

ولا تفسيرَ أرسخُ دلالةً وأقوىٰ حجَّةً من أنّ فاطِرَها هو اللهُ سبحانَه الذِي خَلق النَّفسَ ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:٨]، وألهَمهَا التَّفريقَ بين الخيرِ والشرِّ والحسنِ والقبيحِ، وأرشَدها إلىٰ السَّبيلَين يختارُ منهما ما شاء؛ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]، فالبشرُ يعرفون الخيرَ ويطلبونه ويُنكرون القبيحَ ويذمُّونه؛ واللهُ سُبحانَه أرسلَ إليهم الرَّسولَ؛ ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وهو سبحانه ﴿لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف:٢٨]؛ فهي قبائحُ لا تَسْتحسنها العقولُ(١).

وكثيرًا ما ينبِّهُ ﷻ عَلَىٰ هذه النَّزْعَةِ بصِيغةِ الإِنْكارِ(٢)؛ كقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨].

---

(١) ينظر: مجموع فتاوىٰ ابن تيمية (١٦/ ٢٣٤) وأيضا (١٧/ ١٨١)، مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/ ٣٨٨)، مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٧٤)، محاسن التأويل للقاسمي (١٧/ ١٥٩)، تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٩/ ٢٢٧).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٣٨-٢٣٧).

وقـد أثبـتَ النبـيُّ ﷺ هـذه النَّزْعـة وتقَبُّـلِ الإنسـان للخيـرِ واسـتنكارِه للشـرِّ فِطـرةً فضـلا عـن مجـرد معرفتِـه[1]، فقـال: «**البـرُّ حُسـنُ الخلُـق، والإِثـم مـا حَـاك في نفسِـك وكرِهـت أن يطَّلـع عليـه النـاس**»[2].

إذا أدركنـا هـذا، فهـو يقودنـا إلـىٰ مسـألةٍ أعمـقَ تُعرِّفنـا بفـاطِر السَّـمَاوات والأرْضِ ﷻ، ألا وهـي مسْـألةُ **وجـودِ القِيـمِ الأَخلاقيَّـة المطْلَقَة**؛ حيثُ إنَّ الإنسانَ يُدرك ضرورةً من نفسـه أنَّ لهـذه النَّزعـة الأَخلاقيَّة قيمٌ موضوعيةٌ مطلقة وعامةٌ لجميع البشـر، وليسـت هـي حسَنة أو سيئة فقَط بالنِّسبةِ إلىٰ فردٍ أو جماعةٍ أو مجتمعٍ أو بلدٍ، بل هي كذلك مطلقًا عند كلِّ البشَـر، بـل هِـي كـذَلك حتَّىٰ مَـع تصـوُّر عدمِ وجودِ البشر.

---

(١) ينظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص:٢٤٠)، الاعتصام للشاطبي (٢/ ١٦١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٥٣)، وفي معناه عدَّةُ أحاديث منها: حديث وابصة أن النبي ﷺ، قال: «**استفت قلبك، البر ما اطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك**». أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٧)، وحديث: «**دع ما يريبك إلىٰ ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة**» أخرجه الترمذي (٢٥١٨) وصححه.

فالعدل مثلًا خيرٌ مطلقًا، وقيمةٌ أخلاقيةٌ حسنةٌ، وليس هو خيرٌ لِحُكم البشر عليها بالخيريَّة أو لتراضِي الناس بها وتصَالُحهم عَلىٰ سُلوكِها، بل في العدل قيمةٌ موضوعيةٌ مطلقةٌ نابعةٌ من ذَاتها لا بِحكم أحدٍ عليها[١].

ولعلَّ المقصودَ بالقيمِ المطلقةِ يتضحُ إذا تأمَّلنا القصةَ التَّالية:

في يَومٍ من الأيَّام، بَينما يمشِي طفلٌ مع أمِّه، رأىٰ قطةً، فشدَّ ذيْلها بعُنف، فزجَرتْه أمُّه عن ذلك.

فسألها: ولمَ؟

فقالت: لأنه يؤذيها.

فقال: وما المشكلة في إيذائها؟

فقالت: من الخطأ إيذاءُ حيوان بلا سبب.

فقال: لماذا هو خطأ؟

فليس للملحدِ جوابٌ هنا غيرَ أن يقُولَ: هو خطأٌ وكفَىٰ؟!

معَ أنه كان من المُمكن الإجابةُ بأنَّه عدلٌ، والعدلُ له قِيمةٌ موضوعيةٌ مطلقةٌ، ولكنَّ الملحدَ لا يعترفُ بذلك؛ لأنه يقوِّضُ فكرَه الإلحادي، بل يستمرُّ في عنادِه ومكابَرَته[٢].

---

(١) ينظر: الملل والنحل (٢/ ٩٩)، مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٤٣٥)، النظرية الخلُقية عند ابن تيمية لمحمد عبد الله عفيفي (ص: ١٢٩ – ١٣٠).

(٢) ينظر: شموع النهار لعبد الله العجيري (ص: ٥٧).

وهذه القيم الأخلاقيَّة لا مناص عنها؛ إذ لا قيامَ لمُجتمع بشري صالح بدونها؛ فإنَّ قيامَ المجتمعِ يفتقرُ إلىٰ قانونٍ يحكمُ علىٰ تصرفاتِ النَّاسِ بالحُسْنِ أو القُبْحِ، وإلا لو تُرِك كلُّ إنسانٍ ونزواته دون مراعاة الآخرين لَتعَذَّر وجود مجتمع إنساني صالح؛ ولذا كان البشرُ علىٰ مرِّ العصورِ لَهُم قوانينُ صارمة مبنيةٌ علىٰ هذه القيمِ الموضوعية، فموقفُ الإنسانِ من الكذبِ والخيانة والغش في القديمِ هو نفسُ موقفِه اليومَ وسَيبقىٰ كَذلك، ولعلَّ قوانين حمورابي الشهيرة شاهدةٌ علىٰ ذلك[1].

ووجود هذه القيم الأخلاقيَّة الموضوعية دالَّةٌ علىٰ مُوجدها سبحانَه.

وفي ظلِّ إنكارِ وجودِ اللهِ تُعتبر هذه المسألةُ معضلة من أكبر المعضلاتِ؛ ذلك أنَّ البحثَ في القيم الموضوعية المطلقة بحثٌ في أمور غيبية متعالية علىٰ التفسير المادي؛ ولذا لا مفرَّ لهم من هذا المأزِق إلا المجادلةَ ومحاولةَ إنكارِ وجودِ النَّزعة الأَخلاقيَّة والقِيَم المطلَقَة البدهيَّة مكَابرةً وعنادًا!!

---

(١) للاستزادة ينظر: كتاب شريعة حمورابي لمحمود الأمين، الموسوعة العربية (٨/ ٥٨٣).

وهذا ما اعترفَ به داعيةُ الإلحادِ الشَّهير (ريتشارد دوكنز) بقوله: "ليست جميع الأحكام المطلقة مستمدةٌ من الدِّين، ولكن من الصعبِ جدًّا الدفاعُ عن القيم الأَخلاقيَّة المطلقة على أرضيَّة أخرىٰ غير الدِّين"(١).

وتَعجبُ حين تَسمع بعد هذا مَن يقول مِن الملحدين بأن هذه القيم نسبية؛ ممَّا يُفْقِدها قيمتها، ثم هو يُناقض نفسَه ويَصرُخُ بشعاراتِ الإنسانية والمطالبة بحقوقها بل وحقوق الحيوان، والتظاهر بإرادة الخير والصَّلاح للبشر!! والتساهلِ في نبْز الآخرين بكونهم أَشرارًا؛ كوصفِ الإسلامِ بأنه أعظمُ قوىٰ الشرِّ!!

فهذه الظَّواهر في الحقيقة تكشِف عمَّا يجدونه ضرورةً في نفوسهم وفُطروا عليه من الإقرارِ بالقيمِ المطلقة(٢).

وإذا كانت القيم الأَخلاقيَّة نسبيةً وضْعِيةً، فهل ينْصاع لها الإنسان وهو يعلم أنَّها غيرُ مُقَدَّسة، بل هي من صُنع بشر قَاصرِينَ مثلَه لهم ميولٌ ورغباتٌ ومصالحُ؟! بل كيف ينْصاع لها وهو يعلم أنه لن يسْتفيد من التزامه بها شيئًا؛ إذ لا جزاءَ ولا عقاب!

---

(١) ينظر: وهم الإله لريتشارد دوكنز (ص: ٢٣٢) نقلا عن: شموع النهار لعبد الله العجيري (ص:٦٦).

(٢) عبَّر عن هذا التناقض د. عبد الوهاب المسيري في كتابه العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة (١/ ١٨٩).

والقول بالنسبيَّة مناقضةٌ للعقل؛ لأنَّ أيَّ حُكْم قيمي (حسَن أو قبيح) علىٰ أمْر ما، يمكن أن نحكُمَ عليه بأنه لا صادق ولا كاذب، وهذا تناقضٌ لا تقبلُهُ العقول!

ثمَّ هذا القولُ يُقوِّض التعليم والتربية من أَسَاسِها؛ لأن المعلِّم يُعلِّم الخير والصحيح للأطفال ويربِّيهم عليه، فمن أين له أنَّ هذا الذي يعلمه خيرٌ وحقٌّ مطلقًا؟!

ولو كانت نسبيةً ذاتيةً، فمَن أينَ لهُ الصَّلاحية لِيُلْزم به غيره؟!

وإنْ سلَّمنا جدلًا بالنسبيَّة لا يمكننا مناقشة أيّ موضوع أخلاقي والحكم علىٰ أي شيء بالحُسن والقُبح؛ لأنَّ المسألة راجعة إلىٰ الذَّوق الشخصي لا غير!!

فلو قبضَت الشرطة علىٰ مجرم في جريمة سرقةٍ، وادَّعىٰ هذا المجرمُ أنَّ السرقةَ ليست قبيحة بل حسنة بالنسبة له؛ لأنها تُدِرُّ عليه الأموال، أليسَ لهذا المجرمِ الحقُّ فيما يقول؟!

وهناك مَن يزعمُ بأنَّ مسألةَ الأخلاق ليست راجعَة إلىٰ القيم المطلقة، بل إلىٰ كونها نافعة ومساهمة في عافية الإنسان فحسْب، فيحاول إنكارَ القيمِ المطلقة بإضفاءِ مَسحةٍ نفعيَّةٍ علىٰ الأخلاق!!

ولكنْ علىٰ هذا القول، هل كلُّ ما يُسهم في عافية الانسان يعتبرُ ممارسةً أخلاقية؟!

ولو فرَضنا إنسانًا يستفيدُ من تدمِير البشرِ واستنزافِ الشعوبِ، فهل يكون ذلك خيرًا؟!

هل اغتصاب امرأةٍ فعلٌ حسَن لِمَن يقضِي وطَرَه من ذلك؟[١]

لماذا تُخَطِّئون من يمارس الفاحشة مع الأمهات والمحارم أو مع البهائم[٢]؟

ما المانع من القول بأن هتلر كان علىٰ صواب في أفعاله الإجرامية[٣]؟

بل ما الدافع إلىٰ فعل الخير في الحياة علىٰ هذا القول؟[٤]

هذه التساؤلات وغيرها لا مفرَّ للملحدين عنها، بل يعترفون بعَجزِهم عن الإجابة عليها.

---

(١) وقد سُئل (ريتشارد دوكنز) هذا السؤال في حواراته مع (جاستن بيرلي) حول الإلحاد، واعترف بأن الحكم بكونه شرًّا أمر اعتباطي لا تفسير له، وقد نقله عبد الله العجيري في شموع النهار (ص ٦٦).

(٢) وقد اعترف (لورنس كراوس) بعدم إمكانية الحكم علىٰ شناعة زنا المحارم وكونه خطأ في مناظرته مع (حمزة تزورتزس)، والتي كانت بعنوان (الإسلام أو الإلحاد، أيهما أكثر منطقية؟)، بل صرَّح (بيتر سينغر) بأن ممارسة الفاحشة مع البهائم لا إشكال فيه؟! وقد ذكره عبد الله العجيري في شموع النهار (ص٦٨).

(٣) ينظر: العقل الناضج لـه. أ. أفرستريت ترجمة: عبد العزيز القوصي (ص ٣٣)، وأيضا أثار الإشكال نفسه (ريتشارد دوكنز) كما نقله عبد الله العجيري في شموع النهار (ص ٦٦).

(٤) أورد هذه التساؤلات وغيرها أحد الباحثين في منتدىٰ التوحيد وأورد معها الروابط علىٰ كل ما يذكر ينظر: فضائح إلحادية وأخلاق داروينية:
http://www.eltwhed.com/vb/showthread.php?52441

فإنَّ نفي وجودِ القيم المطلقة يُفضِي إلىٰ الفوضىٰ وعدمِ وجودِ هدفٍ من الحياة بما لا يستقيم معه أمور البشر، وهذا ما أدركه من تبنّىٰ هذا الأمر والتزم بلوازمه، فانتهوا إلىٰ الفوضوية والعدمية والعبثية.

ولا غرابة، فما قيمة إنسانٍ يعتقدُ أنَّه مجرد وسَخ كيميائي موجودٍ علىٰ كوكب متوسط الحجم[١].

معنى هذا أنَّنا لن نستطيع القولَ بوجود خيرٍ موضوعيٍّ في الدنيا في ظلِّ إنكار وجود الله!! فلا يمكن أن نكون خيِّرين صالحين في هذه الدنيا وفي المجتمع بدون الإقرار بوجود الله!!

فالسِّياج الأخلاقي هو الضامن الوحيد لمودَّة الناس وتعاطفهم؛ فمتىٰ وُجد دينٌ يحرِّك الناس نحو الآخرة والآجل، رغبَ الناسُ عن العاجلِ وتلاشت الأحقادُ والأضْغان وصلُحَ المجتمع، وإلا هَيمن القَلَقُ علىٰ العالَم، وفُقِدَ الوعي، وعَجِز المجتمع عن التمسُّك بمفاهيم العدالة كما تنبَّأ مؤرخو الغرب[٢].

---

(١) هذا تعريف الفيلسوف (ستيفن هوكنج) للجنس البشري؟! وقد نقلته من كتاب شموع النهار لعبد الله العجيري (ص٥٩).

(٢) وهذا ما ذكره (أرنولد توينبي)، نقلًا عن: الأسس النظرية لما بعد الحداثة لفخري صالح (ص٧٤).

أخيرًا أيها القارئ، نحنُ هنا بين خيارَين ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]:

إما أن نُؤمن بالله تعالىٰ ونُقرَّ بالفطرة التي منها النزعةُ الأَخلاقيَّة والقيم المطلقة ونَعيشَ حياةً هنيئَة، وإما أن نُناقِضَ فِطَرَنا ونجحدَ خالقَنا ونعيشَ فوضىٰ وقلقًا ودمارًا.

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم[1].

(١) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.

فَمَن خَلَقَ اللّه؟

مناقشـة الشبهـة الإلحاديـة

وإبـراز كمـال الـمعالجـة الشرعيـة

يعتبر دليل الخلق والإيجاد باكورة أدلة وجود الله تعالىٰ، بل أقواها عقلًا، وأظهرها وجودًا، وأيسرها فهمًا، وأقربها إلىٰ الفطر، وأوسعها انتشارًا علىٰ مر التاريخ[1].

ولما كان هذا الدليل بهذه المتانة والمكانة؛ صوَّب الأبالسة إليه سهامهم، ووقفوا له بالمرصاد، ومن أهم تلك الأسهم التي أصيب بها أفئدة كثير في القديم والحديث، شبهة تقول: **إذا كان لكل شيء خالق، فمن خلق الله؟**

فهذا الاعتراض من أقدم الاعتراضات التي حررها الإسلام أبلغ تحرير، ومع كونه تليدًا عتيقًا إلا أنه في ذات الوقت حديث متجدد، بل من أوسع الاعتراضات انتشارًا علىٰ دليل الخلق والإيجاد في يوم الناس هذا.

---

(١) وللاستزادة ينظر: مقال الإبداع والاختراع ووجود الله الصادر عن مركز سلف للبحوث والدراسات.

ومَن ابتليَ بهذه الشبهة الشيطانية ليس علىٰ حال واحدة، بل في الأمر تفصيل سيظهر معنا بإذن الله.

ولهذه الأسباب مجتمعة، ولظنِّ بعضهم أن الشرع لم يعالج هذه القضية أكمل علاج؛ كانت هذه الورقة.

ففيها سنستعرض هذه الشبهة ومراتب من تأثر بها، نردفها بمناقشتها، وكشف زيفها، وإبراز مناقضتها لأدلة العلم التجريبي الحديث، مُعقِّبين ذلك ببيان سبق الإسلام وكمال معالجته لهذه الشبهة مذ وقت مبكِّر.

اللهم إنا نسألك الإخلاص والسداد والقبول والرشاد.

❁ قبل كل شيء:

إن كنت -يا رعاك الله- من الأنقياء الأتقياء المؤمنين بالأوَّل الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء ﷻ، وخطرَ على فؤادك هذا الإشكال دون أن يستقرَّ، فأبشر بفلاحك وصلاحك، فإن النبي ﷺ أخبر بأن هذه حيلة الشيطان مع مَن أيِس مِن إغوائه وإضلاله لرقيِّه في مراتب الإيمان العليا؛ كما حصل مع صفوة الخلق وخيرة البشرية صحابة رسول الله -ﷺ ورضي عن صحابته- فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ، فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «**وقد وجدتموه؟**» قالوا: نعم، قال: «**ذاك صريح الإيمان**»(١)، وفي رواية: «**تلك محض الإيمان**»(٢).

وأما عن علاج الشرع لها، فقد قال ﷺ: «**يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتىٰ يقول: من خلق ربَّك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته**»(٣). وفي رواية: «**فليقل آمنت بالله**»(٤).

---

(١) صحيح مسلم (٢٠٩).
(٢) صحيح مسلم (٢١١).
(٣) صحيح البخاري (٣٢٧٦).
(٤) صحيح مسلم (٢١٢).

فدونك وصية النبي الذي ما ضلَّ وما غـوىٰ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم:٣، ٤]، فعُـضَّ عليهـا بالنواجـذ، مستعيذًا بالله من الشيطان الرجيم وخطراته، ومعرِضًا عن وساوسه المناقضـة لمنطـق العقـلاء، وأسـئلته المتناقضـة لـدىٰ الفضـلاء، ومُجـدِّدًا إيمانـك القـائم علـىٰ التسـليم لـرب الأرض والسـماء، والمتفـق مـع أقـوال الرسـل والألبَّـاء، فـإنَّ مَـن عمَّـر قلبـه بالإيمـان انخنس عنه الشيطان.

وأما الانجرار وراء خطرات الشيطان فلا طائل تحته؛ فطريق الشكوك لا منتهىٰ له، ولا جدوىٰ إلا بالانتهاء والوقوف كما أمرنا النبي ﷺ؛ فإن المرء إذا وصل غاية الغايات ونهاية النهايات وجب وقوفه وانتهائه؛ لأن من حصَّل نهاية مطلوبه فغاية مراده حينئذ أن ينتهي[(١)].

هذا أفضل علاج وخير دواء لهذا الداء، **وهذا القدر كافٍ لك أيها الفاضل إن كان هذا السؤال مجرد خاطرة**[(٢)].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣/ ٣١٤ - ٣١٥).

(٢) ولعلـك تشـاهد ردود عمالقـة النقـاش والـرد علـىٰ الشـبهات في الـبرامج الجماهيرية من أمثال: أحمد ديدات وتلميذه ذاكر نايك، ينظر:

https://www.youtube.com/watch?v=nAjTSJpHlhM

https://www.youtube.com/watch?v=_o3GN85BBq8

https://www.youtube.com/watch?v=qFIzJ9aYkeA

وأما إن كنت أيها القارئ العزيز ممَّـن استقرت هـذه الشـبهة في نفسـه، وعلقَـت في ذهنـه، وأشـغلت فكـره، أو كنـت ممَّـن يُنـاقش هـؤلاء سـواءً كـانوا يثيرونهـا أو فُتنـوا بهـا، فسـنكمل معـك بـاقي الطريـق، لنناقش هـذه الشـبهة، ونكشـف عوارهـا، ونبـين بطلانهـا، بإذن الله تعالىٰ[1].

(١) هذا التفصيل في حال ومراتب من وردت عليه هذه الشبهة، قد فصَّـله العلمـاء، ينظر: شرح النووي علىٰ مسلم (٢/ ١٥٥).

❁ منبع الشبهة وحقيقتها:

لا يحسن بنا ونحن نتحدث عن هذه الشبهة أن نُغفل الكلام عن منبعها ومنبتها، فهذه الشبهة في الحقيقة ليست سوىٰ **اعتراض علىٰ دليل الخلق والإيجاد** الشهير الدالِّ علىٰ وجود الله ﷻ، فبينما يستدل المؤمنون بحدوث الكون علىٰ وجود الله تعالىٰ، بقولهم: إن الكون حادث، وكل حادثٍ فلا بد له من محدِثٍ أزلي قديم، وذلكم هو الله[١]؛ يوحي الشيطان إلىٰ أوليائه بقوله: **إذا كان كل شيء يحتاج إلىٰ محدِثٍ وخالق، فوجود الله أيضا يحتاج إلىٰ محدِث وخالق، فمن خلق الله؟**

بيد أن كثيرًا ما يراد بمثل هذا الاعتراض في يومنا هذا مجرد الشغب والسجال ليس إلا[٢].

ورغم كل ذلك فقد شكَّلت هذه الشبهة عائقًا دون الإيمان بالله سبحانه لدىٰ كثير؛ كالفيلسوف (هيوم) حيث يقول: "إذا كان لا بد لنا من البحث عن علَّة لكل شيء، لوجب إذن أن نبحث عن علَّة للإله نفسه"[٣].

---

(١) وللاستزادة ينظر: مقال الإبداع والاختراع ووجود الله، في موقع مركز سلف للبحوث والدراسات.

(٢) وهذا ما بينه الشيخ عبد الله العجيري في كتابه شموع النهار (ص١٥٠).

(٣) ينظر: قصة الفلسفة الحديثة، زكي نجيب محمود (ص٢٤٤).

وعلىٰ إثر (هيوم) تَتابع كثير من الملاحدة في الافتتان به، يقول (برتراند رسل) وهو يتحدث عن علاقته بدليل الخلق والإيجاد: "كنت أعتقد صحة حجة المسبِّب الأول إلىٰ أن قرأت في عمر الثامنة عشرة سيرة (جون ستيوارت مل)، حيث وردت الجملة التالية: (علمني والدي أنه توجد إجابة عن السؤال: من خلقني؟ لأن السؤال التالي سيكون: من خلق الرب؟!)، هذه الجملة القصيرة هي التي أوضحت لي مغالطة هذه الحجة، إذا كان لكل شيء سبب يجب أن يكون للرب سبب أيضا"[١].

ومنهم أيضًا الفيلسوف (سبنسر) حيث يقول: "استمع إلىٰ هذا الناسك المتدين، ها هو ذا يقصُّ عليك علّة الكون، وكيف نشأ، فخالق الكون عنده هو الله، ولكنه لم يفسِّر بهذا الرأي من المشكلة شيئًا، ولم يزد علىٰ صاحبه (أي: المنكر للخالق) سوىٰ أن أرجعها خطوة إلىٰ الوراء.

وكأني بك تُسائله في سذاجة الطفل: ومن أوجد الله؟"[٢].

وكذلك (ستيفن هوكنج) و(ريتشارد داوكنز) الذي اعتمد عليه في جلِّ كتابه الإلحادي (وهم الإله).

---

(١) لماذا لست مسيحيا؟ مجلة "أنا أفكر" (٦/ ٢١).

(٢) ينظر: قصة الفلسفة الحديثة، زكي نجيب محمود (ص٤٧٧).

وراجـت هـذه الشـبهة في ألسـنة وأفئـدة كثيـر، حيـث تضـخُّها أجهـزة الإعـلام بمختلـف أسـاليبها ووسـائلها، وتبثهـا في أوسـاط الشـباب الحـائر، فتـأثَّر بـذلك بعضـهم حتىٰ اسـتقرَّت في النفـوس، وهذا ما يحوجنا إلىٰ كشف عوار هذه الشبهة، وبيان بطلانها.

۞ ۞ ۞

❁ بطلان الشبهة وتناقضها:

لاحظ أخي القارئ هذه الأسئلة، ثم تفكَّر هل لك أن تجيب عنها؟

- ما نوع الطفل الذي وُلد لأحمد في المستشفىٰ البارحة، أهو ذكر أم أنثىٰ؟
- من هي زوجة العازب؟
- كم لترًا يكون حرارة الطقس في هذا الوقت؟

هل تستطيع أن تجيب عن هذه الأسئلة، أم أنك تلاحظ فيها تناقضًا داخليًا لا يمكن مسايرتُه؟

لا شك أنك تلاحظ أن **هذه الأسئلة تحمل في طياتها مغالطات منطقية** تنقضها دون أن تحتاج إلىٰ إجابة.

فكيف ننتقل للبحث عن نوعية الطفل الذي وُلد لأحمد، ونحن نوقن أن السؤال مبني علىٰ خطأ، وهو: أن أحمد رجل، والرجل لا يلد؟!

أم كيف نبحث عن زوجةٍ لرجل نحن موقنين أن لا زوجة له؟!

بل كيف نبحث عن عدد لترات الحرارة، ونحن نوقن أن اللتر ليس مقياسًا للحرارة؟!

لا شك أنك تقرُّ معي أن الحل هنا هو التوقُّف وردُّ هذا السؤال؛ لأنه سؤال لا معنىٰ له ولا جواب؛ إذ ليس المقصود منه الجواب في الحقيقة وإنما مجرد السجال والجدال،

فالأفضل هنا أن نتوقَّف ونوقِف السائل ونطلب منه ألَّا يسفِّه عقولنا ويخاطبنا بتلك المغالطات.

إذا أيقنت بهذا، فإن سؤال "من خلق الله" من جنس هذه الأسئلة، فهي في حقيقتها تقول: من خلق الذي هو غير مخلوق؟!! أو ما بداية الذي لا بداية له؟!!

وكيف نبحث عن خالق الذي لم يُخلق ولا خالق له، أو بداية الذي لا بداية له ﷻ، وهل كان الله في يومٍ من الأيام معدومًا حتىٰ يُبتدأ وجوده، حاشاه سبحانه.

كيف تكون له بداية وهو الأول المتصف بالأولية المطلقة؟! فليس قبله شيء سبحانه، وأيضا هو الآخر فليس بعده شيء[1]، فالله ﷻ لا بداية له ولا نهاية، وإنما ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، فوجوده أزلي قديم لم يكن في وجوده مفتقرًا إلىٰ غيره ﷻ، بل وجوده الوجود الواجب الذي يحتاج إليه غيره، لا كوجود المخلوق الممكن الوجود.

وأما حيرة بعض العقول أمام تصوِّر موجود أزلي لا أوَّل لوجوده فذلك لا يستلزم عدم وجوده؛ ومتىٰ كان عدم العلم بالشيء علمًا بعدمه؟!

---

(١) ينظر: صحيح مسلم (٢٧١٣).

وهـذا السـؤال وهـذا الاعـتراض في حقيقـة الأمـر يكشـف عـن **سوء فهم وخلط بين ما يستدل به المؤمنون من الوجود الحادث الممكن واستلزامه للوجود الواجب، وبين معنىٰ الوجود مطلقًا**، وشتَّان بينهما، فالمؤمنون في دليلهم ينصُّون علىٰ أن كل مُحدَثٍ لا بد له من سبب ومن خالقٍ محدِث أوجده، بعكس ما يدعيه هؤلاء الملاحدة بأنهم يقولون إن كل موجود لا بدَّ له من سبب، فهم لا يقولون هذا، وإنما يقولون إن الوجود الممكن -فقط وليس كل موجود- لا بد له من سبب وموجود واجبٍ أحدثه.

واستلزام الوجود الحادث الممكن للوجود الواجب ليس مجرَّد افتراض اعتباطي يفترضه المؤمنون بالله تعالىٰ[1]**، وإنما هي مسألة ضرورية عقلية بدهية**، فوجود خالقٍ ومحدثٍ أوليٍّ وجوده من نفسه متصف بالوجود الواجب[2] ضروري، وقد تتساءل كيف ذلك؟

مُنطلق المؤمنين إلىٰ ذلك ما يرونه من وجود المحدَثات في الكون بعد عدم، فإن هذه الموجودات المحدَثة تستلزم بالضرورة العقلية مُوجِدًا أزليًّا قديمًا لا يسبقه عدم؛ لأنه يستحيل أن يكون موجده حادثًا، ثم موجد ذلك الحادث حادثٌ آخر إلىٰ ما لا نهاية،

---

(١) والعجيب أن كثيرًا من (دعاة الإلحاد الجديد) ينسب هذا إلىٰ المؤمنين وإلىٰ دليل الخلق والإيجاد، ينظر: وهم الإله لـ(ريتشارد دوكنز) (ص٧٧).

(٢) هذا وصف لوجود الله ﷻ، ولا يعتبر اسمًا من أسمائه تعالىٰ؛ فإنه لم يخبرنا أنه سمَّىٰ نفسه ﷻ بذلك، ولا أخبرنا بذلك رسوله ﷺ.

بل لا بد أن تنتهي هذه السلسلة إلىٰ مُوجد قديم وجوده واجب[١].

ولو افترضنا ذلك بحيث يكون لكل موجود حادثٍ موجدٌ حادثٌ مثله، وهكذا إلىٰ ما لا نهاية، فمع أن هذا اللاتناهي لا وجود له واقعيًّا كما يعترف بذلك علماء الرياضيات والفلاسفة[٢]، فإن التسليم به يستلزم أنْ لا خالقَ للكون ولا وجود له، وهو ممتنع ومناقضٌ للمعارف الحسية الضرورية.

إذن تسلسل الفاعلين إلىٰ ما لا نهاية ممتنع؛ بل لا بد أن تصل سلسلة الفاعلين إلىٰ علة غير معلولة، وإلىٰ سبب نهائي تنتهي إليه الأسباب، وهذه النهاية هي إلىٰ الله ﷻ كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم:٤٢].

ولعلنا نجلِّي لك الأمر بهذا المثال: لو قال لك المحاسب الذي يصرف الرواتب: لن أسلِّمك الراتب حتىٰ يوافق سالم، ولن يوافق سالم حتىٰ يوافق سامي، ولن يوافق سامي حتىٰ يوافق سامر، ولن يوافق سامر حتىٰ يوافق سلمان...وهكذا إلىٰ ما لا نهاية، فلن تستلم الراتب أبدًا ولن يحصل الأثر.

---

(١) وممن استدل بهذا في الغرب اليوم (ويليام لين كريغ)، واستدل له علىٰ وجود الله ضد الملاحدة، وفي ذلك ألَّف كتابه (الدليل الكلامي الكوسمولوجي)، وقد ناقشه د. سامي عامري في آخر كتابه (فمن خلق الله) (ص١٨٧).

(٢) من أمثال (ديفيد هيوم) و(ديفيد هلبرت)، ينظر: فمن خلق الله لـ د. سامي عامري (ص٦٨).

مثال آخـر: لـو افترضـنا أن مجرمًـا حُكـم عليـه بالقتـل، فقـال الجندي: لا يمكن أن أضرب عنقه حتىٰ يـأمرني مـن هـو أعلىٰ منـي رتبة، وقال من فوقه: لا أفعل ذلك حتىٰ يـأمرني مـن هـو أعلىٰ منـي رتبة، فإما أن تنتهي إلىٰ قائد يأمر بالقتل وإلا لـم يقـع الفعـل، ومثـل هذا في كوننا ووجودنا إن لم يكن له بداية فلن يكون له وجود.

ومـن الشـواهد علـىٰ امتنـاع هـذا التسلسـل: اسـتحالة عبـور اللامتناهي، ومعنىٰ ذلـك أننـا إن لـم نبـدأ مـن نقطـة معينـة ولحظـة ثابتة، فإننا لن نسـتطيع تصـوُّر الآن واليـوم وأمـس والعـام الماضـي والعـام القـادم، وهـذا منـاقض للواقـع المحسـوس في حياتنـا؛ وقـد لخَّصــه الجــويني في عبــارة مختصــرة بقولــه: "مــا يتسلســل لا يتحصَّل"[1].

وفي هـذا يقـول د. عبـد الـرحمن حبنكـة: "فمـن الضـرورات العقليـة، أو الحتميـات العقليـة، أن يكـون وجـود موجـودٍ مـا هـو الأصـل، لا العـدم الكلـي العـام الشـامل لكـل مـا يخطـر في الفكـر وجوده.

وذلك لأنه لو كان العدم الكلي الشامل لكل ما يخطر في الفكـر وجوده هو الأصل، لاستحال عقلًا وواقعًا أن يتحـول العـدم بنفسـه إلىٰ الوجود.

---

(١) العقيدة النظامية للجويني (ص٢٠).

وإذا استحال أحد النقيضين كان النقيض الآخر واجب الوجود عقلًا.

إذن فقد وجب بالضرورة العقلية أو بالحتمية العقلية، أن يكون الوجود لموجودٍ ما، هو الأصل.

وما كان وجوده هو الأصل عقلًا، فإنه لا يحتاج تفسيرًا ولا تعليلًا، ولا يتطلب سببًا.

هذه الضرورة العقلية، أو الحتمية العقلية، تثبت عقلًا بدليل استحالة نقيضها عقلًا"[١].

وهذه المسألة هي التي تُسمَّىٰ عند أهل العلم باستحالة التسلسل في الفاعلين المؤثرين، وهي من الأدلة القوية التي اعترف الملاحدة بعجزهم عن ردها[٢].

والفضل في بناء هذا الرد القوي ونشأة أصله دليل الخلق والإيجاد يرجع إلىٰ علماء المسلمين بحمد الله تعالىٰ كما يعترف بذلك من يتناوله من الغربيين أنفسهم[٣].

---

(١) كواشف زيوف (ص ٥٢٧ - ٥٢٨).

(٢) ينظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (١/ ٣٦)، تهافت الفلاسفة لأبي حامد الغزالي (ص٩٩ وما بعدها)، الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد (ص١١٩)، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمة (٣/ ١٤٩)، ولتوضيح أكثر شاهد المقطع التالي:

https://www.youtube.com/watch?v=e99el1gavJs

(٣) ينظر: الدليل الكلامي الكوسمولوجي لـ(ويليام لين كريغ) (ص١٧).

ويمكننا تلخيصه في هذه العبارات المختصرة:

١. كل ما في كوننا ممكن الوجود، ولا يمتنع عقلًا ألَّا يوجد.

٢. كل شيء وجوده ممكن، فهو محتاج إلىٰ علة ترجح وجوده علىٰ عدمه.

٣. لا يمكن لسلسلة العلل والآثار أن تستمر في الماضي إلىٰ ما لا نهاية.

٤. لا بد لهذه السلسلة أن تنتهي عند (من/ ما) لا علة لوجوده.

٥. تنتهي السلسلة عند الأوَّل الذي يفسَّر وجوده بطبيعة امتناع عدمه عقلًا، وهو: واجب الوجود[١].

وهذا الاستدلال العقلي الرصين كما ترىٰ ليس هو إرجاع للمسألة خطوة إلىٰ الوراء اعتباطًا هكذا كما يفترضه الملاحدة، إذ لم يقرِّر المؤمنون أن الكون له سبب، وأن الله لا يحتاج إلىٰ مثل ذلك السبب بمجرد التحكم الاعتباطي أو الافتراض الشخصي، وإنما بالضرورة العقلية البدهية.

فنحن عندما وجدنا الكون أمامنا كان التساؤل العقلي المنطقي من خلق الكون؟ فهو سؤال منطقي؛ لأن الكون حادث بعد عدم ومحتاج إلىٰ خلق، لكن من غير المنطقي أن نسأل: من خلق الله؟ لأن الخالق لا يحتاج إلىٰ خلق.

---

(١) فمن خلق الله لـ د. سامي عامري (ص٨١).

مثلًا: إذا دخلت إلىٰ غرفة رأيت فيها كتابًا موضوعًا علىٰ الكرسي ورجلًا جالسًا علىٰ الأرض، ثم خرجت وعُدت، فوجدت الكتاب علىٰ الطاولة، والرجل علىٰ أريكة، فسؤالك المنطقي هنا من وضع الكتاب علىٰ الطاولة؟ ومن غير المنطقي أن تسأل من وضع الرجل علىٰ الأريكة؟ لماذا؟

لأن الكتاب ليس له القدرة علىٰ الحركة من تلقاء نفسه أما الرجل فله القدرة الكاملة علىٰ الحركة والتنقل.

وهذا السؤال -سؤال من خلق الله- في الحقيقة ينمُّ عن **خطل وخبط عقلي عشوائي**؛ فبعد أن تُقرِّر وتُثبت بالأدلة والحجج والبراهين أن وجود الله ﷻ الخالق الأزلي لا سبب له ولا بداية له، يأتي ويسألك ما سبب وجود الله وكيف كانت بدايته ومن خلقه؟!!

وكيف لنا أن نبحث عن بدايةٍ لمن لا بداية له، بل هو **خارجٌ عن نطاق الزمان والمكان**، بل الزمن ذاته لا يعدو أن يكون مخلوقًا من مخلوقاته، فالله لا يخضع للقوانين التي تخضع لها المخلوقات وكيف يخضع لتلك القوانين وهو واضع القانون أساسًا، سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]؛ ولذا لا يصح في حقه سبحانه قياس التمثيل ولا قياس الشمول بل قياس الأولىٰ.

وبالمثال يتضح المقال -﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾-: صانع السيارة مـثلًا لا يمكـن أن يكـون مشـابهًا للسـيارة في شـكلها والمـادة المصنوعة منها ولا قوانينها، فالقوانين الفيزيائية التي تنطبق علىٰ السيارة لا تنطبق علىٰ صانعها، مع أنه لا يمكن للسيارة أن تكون موجودة لولا هذا الإنسان الذي صنعها.

والقوانين التي تحكمنا نحن في الزمان والمكان لا يمكن أن تنطبق علىٰ خالق الزمان والمكان ﷻ؛ فإن الزمان لو تأملنا فيه فليس هو سوىٰ أثر لحركة الأفلاك والأجرام، فهو ليس شيئًا قائمًا بذاته، وإنما أثر من آثار خلق الله تعالىٰ[١].

وبهذا يقرُّ أرباب العلم التجريبي اليوم حتىٰ الملاحدة منهم علىٰ عكس ما كان يدَّعونه قبلُ، فقد كانوا لا ينفكُّون عن الاعتراض علىٰ دليل الخلق والإيجاد بدعوىٰ أزلية العالم والمادة والزمان، ولكن كثيرًا من المكتشفات العلمية الحديثة لم تقف في صفِّهم، بل نقضَت دعاواهم تلك ودفعتهم إلىٰ التسليم بأن العالم والزمان خلوقان حادثان وُجدا بعد أن لم يكن، وفي هذا يقول (ستيفن هوكنج): "ومع تراكم الدليل التجريبي والنظري أصبح من الواضح أكثر وأكثر أن الكون لا بد له من بداية في الزمان، حتىٰ تمت البرهنة علىٰ ذلك نهائيا في ١٩٧٠م"[٢].

---

(١) ينظر: معيار العلم في فن المنطق للغزالي (ص: ٣١٨)، مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٢/ ٤٩٢).

(٢) تاريخ موجز للزمان لـ(ستيفن هوكنج) (ص٧)، وينظر أيضًا: =

ويقول العالم الفيزيائي المعاصر (بول ديفيز): "أهم اكتشاف علمي في عصرنا هذا هو أن الكون المادي لم يكن موجودًا أبدًا"[١].

وهذا التراجع عن القول بأزلية الكون كما أسلفنا يرجع إلىٰ كثير من الاكتشافات والنظريات العلمية الحديثة، والتي من أهمها:

◊ **اكتشاف قانون الديناميكا الحراري الثاني**، وملخصه: أن الطاقة الحرارية لا تنتقل إلا من الأجسام الحارة إلىٰ الأجسام الأقل منها حرارة، ولا يمكن أن يحصل العكس، مما يعني أن الطاقة في الكون لا تسير إلا في اتجاه واحد فقط، وهو الانتقال من الأعلىٰ إلىٰ الأقل حرارة، وبالتالي فالكون يفقد طاقته ويسير من النظام إلىٰ الفوضىٰ ومن الحرارة إلىٰ البرودة[٢].

فإذا كان الكون كذلك فإنه سينتهي يومًا ما، وما له نهاية فلا بد له من بداية.

= نظرة علمية لـ(برتراند رسل) (ص١٠٧- ١٠٩)، الله يتجلىٰ في عصر العلم لمجموعة من الباحثين (ص١٢)، وأيضا (ص٩١)، والإسلام يتحدىٰ لمؤلفه وحيد الدين خان (ص٥٥).

(١) القوىٰ الأربع الأساسية في الكون لـ(بول ديفيز) (ص١٧)، وانظر: الله يتجلىٰ في عصر العلم لمجموعة من الباحثين (ص٣١).

(٢) ينظر: أساسيات الفيزياء لـ(بوش) (ص٣٢٧- ٣٤٤).

◊ **صعود نجم نظرية الانفجار العظيم**، وخلاصة هذه النظرية: أن كوننا بدأ بانفجار عظيم حدث قبل بلايين السنين من لا شيء، ومن حين هذا الانفجار بدأ الزمان والمكان، وهذا ما يعتقده عامة الفلكيين اليوم، وهو ما أثَّر على تبنِّي القول بحدوث المادة وعدم أزليتها[١].

وقد استدل العلماء على صحَّة النظرية بشواهد كثيرة أوصلها عالم الفيزياء الفلكية (هيو روس) إلى ثلاثين دليلًا، وقد استعرضها د. سامي عامري في كتابه (فمن خلق الله)، ومن أهمها:

◊ وجود إشعاع الخلفية الكونية وحرارته.
◊ نسبة الفوتونات مقارنة بالبريونات في الكون.
◊ معدل التوسع الكوني.
◊ المدارات المستقرة للنجوم والكواكب.
◊ وجود الحياة والإنسان.
◊ وفرة الهيليوم في الكون.
◊ الأعمار النجمية.
◊ أعمار المجرات.
◊ صور تاريخ الكون.

---

(١) ينظر: القوى الأربع الأساسية في الكون لـ(بول ديفيز) (ص٢٠)، التصميم العظيم لـ(ستيفن هوكنج) (ص١٥٢ وما بعدها)، الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون لـ(ستيفن واينبرج) (ص١٢).

وغيرها من الشواهد العلمية التي أيَّدت هذه النظريَّة وأعطتها السيادة في أوساط العلم الحديث اليوم[١].

ويصوِّر لنا رئيس علماء وكالة ناسا[٢] خيبة أمل الملحدين في ذلك بقوله: " تنتهي القصة بالنسبة للعالِم الذي عاش بإيمانه بقوة العقل كمنامٍ سيء، لقد تسلق جبال الجهل، ويكاد يقهر أعلىٰ قمة، وبينما هو يرفع نفسه إلىٰ الصخرة الأخيرة، **يفاجأ بتهنئة من جَمْعٍ من اللاهوتيين الجالسين هناك منذ قرون**".

فهذه النظرية وشواهدها كانت صادمة ومزعزعة لكثير من الملحدين، كما يقول (أنتوني فلو): "عندما التقيت لأول مرة – كفيلسوف ملحد– بنظرية الانفجار العظيم الكوني التي تصدت لتفسير وجود الكون، أدركت أنني أواجه نظرية مختلفة، نظرية تتماشىٰ مع ما يطرحه سفر التكوين، وإذا كان الأمر كذلك، فلم يعد هناك مفر من البحث عمن أحدث هذه البداية"[٣].

فلم يجدوا بُدًّا سوىٰ أن يتنكروا لهذه النتائج التي توصَّل إليها العلم الحديث الذي طالما تبجَّحوا باتِّباعهم له وسيرهم معه أينما سار، فلما كان الأمر موافقًا لما عليه الدين تنكَّروا له محاولين تجاوز دلائله ويقينياته، وما زالوا حتىٰ اليوم يمارسون هذه المغالطة،

---

(١) ينظر: فمن خلق الله لـ د. سامي عامري (ص٨٩).

(٢) هو (روبرت جسترو) اللا أدري في ختام كتابه (الله والفلكيون) (ص١١٦).

(٣) ينظر: رحلة عقل لعمرو شريف (ص٨٠).

وهذا ما نقرأه في مقال نشر في مجلة (new Scientist) التي يسيطر عليها الماديون في عام ٢٠١٢م: "اعتقد علماء الكوسمولوجيا أن عليهم الالتفات وراء المشكلة، لقد حاولوا علىٰ مرِّ السنوات الماضية إثبات عدة نماذج مختلفة للكون تتفادىٰ الحاجة إلىٰ بداية، مع الاستمرار في اشتراط انفجار عظيم، **يبدو الآن من المؤكد أن الكون كانت له بداية**"[١].

ويوضح لنا (جاسترو) عمق الانغلاق العقلي الذي يمارسه هؤلاء حيث يقول: "إنهم يؤمنون أنهم بشيء من الوقت والمال بإمكانهم الوصول إلىٰ حلّ علمي لبداية الكون يوافق عقليتهم المادية ويلغي كل تفسير خارق... **إن الانفجار العظيم قد مسح كل أثر من الممكن الاستدلال به علىٰ غير ما نشهده اليوم**"[٢] والفيلم الشهير (مطرودون) يحكي واقع هذا الانغلاق[٣].

إلى هنا قد تبين لنا تناقض هذا السؤال في بُنيَته، ومغالطاته المنطقية، ومصادمته لمكتشفات العلم الحديث، وتماسك دليل الخلق والإيجاد في مقدماته ومكوناته، فإذا كان كذلك، فلننظر **هل تضمَّن الشرع هذه الحجة وهذا البرهان؟ أم اكتفىٰ بمجرد المنع من الخوض في هذا السؤال كما يظن كثير؟**

---

(١) نقلا عن: (فمن خلق الله) لـ د. سامي عامري (ص٩٩).

(٢) رسالة من البروفيسور (جاسترو) نقلا عن: (فمن خلق الله) لـ د. سامي عامري (ص١٢٢).

(٣) https://www.youtube.com/watch?v=gwcDgIcwdtU

❁ كمال المعالجة الشرعية لهذه الشبهة:

سبق أن ذكرنا أوَّل هذه الورقة أن الشرع أمرنا بالاستعاذة بالله تعالىٰ والتوقف عن مثل هذا السؤال، وعزانا إلىٰ الإيمان الكامن في نفوسنا بالله ﷻ، ولكن هناك مَن فهم أن الشرع لم يعالج المسألة علاجًا كاملًا، وإنما اكتفىٰ بإبعاد المسلم عنها دون نقد بُنْية الشبهة وأصلها، وقد غَلطوا فيما ظنُّوا، ففي كتاب الله وسنته الخير والهدىٰ، وهما المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك، **ولكن كيف ذلك؟**

أخبرنا النبي ﷺ أن هذه شبهة شيطانية يوسوس بها الشيطان علىٰ أفئدة الناس، حيث يقول: «**يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول: من خلق كذا وكذا؟ حتىٰ يقول له: من خلق ربَّك؟...**»[1].

وفي رواية: «**يأتي العبدَ الشيطانُ فيقول: من خلق كذا وكذا؟...**»[2].

وما كان الله ليذر المؤمنين دون أن يُميِّز لهم خبث هذه الوسوسة الشيطانية، ويبيِّن لهم العلاج النافع والسلوك الأقوم معها.

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٧٦).

(٢) صحيح مسلم (٢١٤).

فقد دلَّنا الشرع على المنهج والقاعدة العامَّة التي ينبغي أن تُسلك مع مثل هذه الوساوس والسفسطات؛ إذ الإحاطة بكل وسواس يرِد على نفوس المؤمنين عزيز لا حصر له، فلا يمكن حصره في قول بل في كتب وأسفار.

فكان الأصلح هو وضع قاعدة للتعامل مع مثل هذه الخطرات والوساوس السوفسطائية، وهو ما سبق الشرع إليه.

وذلك أن المبادئ الأولية الضرورية كامنة في النفس البشرية، وبدهية في الفِطَر السوية، ولكن الفطرة قد تمرض وتفسُد فترى البدهي نظريًّا والحق باطلًا، وتقبل تلك الوساوس والخطرات المغالطة، وحينئذ نحتاج إلى علاجٍ لهذا المرض، **فما هو العلاج المُجدي في مثل هذا المرض؟**

العلاج الأكمل لمن فسُدت فطرته وشكَّ في المقدِّمات العقلية البدهية أن ينتهي عن تلك الوساوس، وأن يُذكَّر بأصالة هذه المبادئ الفطرية في نفسه، ولا يمكن معالجة هذا المرض بالأدلة العقلية والبرهانية؛ لأن الأدلة العقلية مستندةٌ على تلك المقدمات الفطرية، فكيف يُستدل بالأدلة العقلية على البدائه الفطرية التي هي مستندة عليها؟[1].

---

(١) وللاستزادة عن المقدمات الأولية ينظر: مقال دلالة المقدمات الضرورية على وجود الله في موقع مركز سلف للبحوث والدراسات:

http://salafcenter.org/522

فمـن شـكَّ في المقـدمات الأوليـة الفطريـة انقطـع عنـه طـرق الاستدلال والبرهنة، ولـزم عـلاج هـذه المشكلة فيـه قبـل الانتقـال إلىٰ ما بعدها؛ لأن مـن ينكـر العلـوم الحسية والضـرورية -كـالعلم بـأن الواحـد نصـف الاثنين- لا سـبيل إلـىٰ مناظرتـه أو الاسـتدلال عليـه بـالبراهين، بـل إذا كـان جاحـدًا معانـدًا عوقـب حتـىٰ يعـترف بالحق، وإن كان غالطًا فإنه يعالج بما يوجب حصول شروط العلـم لـه وانتفـاء موانعـه، فـإن عجـز عـن ذلـك لفسـادٍ في طبيعتـه عـولج بالأدوية الطبيعية أو بالدعاء والرُّقىٰ ونحو ذلك وإلا تُرك.

إذن الوسـواس السوفسـطائي القـادح في المقـدمات الأوليـة لا يُعالج بالاستدلال والبراهين، وإنما بالتذكير والتنبيه علىٰ فطرية تلك المبادئ.

ولما كـان سؤال (مـن خلـق الله؟) مـن جـنس هـذه الوسـاوس السوفسـطائية، نجـد هـذا العـلاج جليًّـا في تعامـل النبـي ﷺ مـع الوسواس السوفسطائي الذي نناقشه في هذه الورقة، فقـد علِـم ﷺ أن وسـواس التسلسـل في الفاعـل يقـع في النفـوس؛ ولأن العـلاج الأنفع مع أمثالها هو قطـع هـذه الوسـاوس والرجـوع إلـىٰ المبـادئ الأولية أمر بالانتهاء، والاستعاذة بـالله منهـا، والاستناد إلـىٰ الأدلـة الفطرية، واستحضار الإيمان بالله والشـواهد القطعيـة الدالـة عليـه، وقطع الوسواس العارض بطود الإيمان الشامخ.

وهكـذا نجـد النبـي ﷺ لخَّصـها في قولـه: «**فليسـتعذْ بـالله وليَنْته**»(١)، وقوله: «**فليقل: آمنت بالله**»(٢).

إذن النبي ﷺ أمرنا حيال هذا الوسواس بثلاثة أمور:

١- الاستعاذة.

٢- الانتهاء.

٣- الإيمان.

وسنفصِّل لك القول في كل واحدة من هذه:

١- الاستعاذة.

من غلبه وسواس التسلسل حتىٰ عجز عن دفعه عن نفسه، فهذا علاجه الاستعاذة بالله منها؛ فإن الله هو الذي يعيذ الإنسان ويجيره من الشبهات المضلة والشهوات المغوية؛ ولهذا أُمر العبد أن يستهدي ربه في كل صلاة، فيقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة:٦، ٧]، ويطرد عنه وساوس الشيطان ونزغاته بالاستعاذة كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف:٢٠٠].

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٧٦).

(٢) صحيح مسلم (٢١٢).

وامتـدح الله المـؤمنين المتقـين بـأنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ [الأعراف:٢٠١]، إلىٰ غيرها من النصوص الكثيرة في الاستعاذة بالله العظيم.

والواقع أن كلَّ إنسان يعرف من نفسِه كثرةَ تقلب قلبه من الخواطر، سواء في جانب الشبهات أو جانب الشهوات، والله هو القادر علىٰ صرف ذلك عنه.

فالاستعاذة بالله إذن علاج قويم وناجع مُفضٍ إلىٰ المقصود.

ولكن النبي ﷺ لم يكتف بتلك الوصفة العلاجية لهذا المرض، بل أردفها بالانتهاء عن منبت المرض وأصله.

٢- **الانتهاء.**

سبق أن قلنا إن فساد هذه الشبهة معلوم بالبداهة العقلية الضرورية؛ فإن العاقل يعلم خطأ سؤال من يسأل: من خَلَق الذي لم يُخلق؟

لأنه سؤال يتضمن مغالطة منطقية ويفضي إلىٰ التسلسل الممتنع ببداهة العقول، فالعلاج الأمثل معه هو الانتهاء.

ولذا أمر به النبي ﷺ، فالانتهاء وإيقاف وسواس الشيطان وخطراته المفسدة لفطرة الإنسان وعقله هو من العلاجات الشرعية، وهو علاج ناجعٌ، بل الأنجع لهذه الشبهة؛ لأن هذا الوسواس ليس من جنس الوساوس الأوَّلية التي تُعالج بما بعدها،

بـل هـو نهايـة الوسـاوس التـي لا تُـزال إلا بالانتهـاء؛ فـإن الـنفس البشرية والفطـرة السـويَّة تطلـب سـبب كـل شـيء حتىٰ تنتهـي إلىٰ الغايـة والنهايـة التـي لا شـيء وراءهـا، فـإن وصـلت إلـىٰ غايـة المطالب ونهاية المآرب وجب عليها أن تقف.

والله ﷻ إليه المنتهىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم:٤٢]، فهـو سـبحانه منتهـىٰ الغايـات[1] التـي لا غايـة دونـه سبحانه، ومن طلب غايةً بعده سبحانه وجب أن يقف وأن ينتهي، ويستجير بالله من وسواس التسلسل الممتنع ببداهة العقول.

وهكذا وصف النبي ﷺ الاستعاذة علاجًا لهذا للمرض، وأمر بالانتهاء وإيقاف أصل المرض ومنبعه، ثم أوجد البديل النافع لذلك المرض، ألا وهو الإيمان.

٣- الإيمان.

أمر النبي ﷺ بعلاج هذا الوسواس ودفعه بالإيمان، وقول: «**آمنت بالله**»[2]؛ لأن العلاج الأصلح للسفسطة هو التنبيه والتذكير بالبدائه والمقدِّمات العقلية لعلها تستيقظ من سباتها، فإن اتعظ

---

(١) هذا من باب الوصف وليس هو اسمًا لله ﷻ، كما هي القاعدة المعروفة عند أهل السنة والجماعة.

(٢) سبق تخريجه.

ورجع إلىٰ فطرته علم فساد هذه الشبهة، وذهبت عنه الوساوس.

فـإن وسـاوس الشـيطان لا يمكـن أن تجتمـع في قلـبٍ معمَّـر بالإيمان؛ لأن الشيطان يخنس عند ذكر الله؛ ولـذا سُـمِّي الوسـواس الخنـاس، كمـا في قولـه تعـالىٰ: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ [الناس:٤، ٥]، والخنـوس الاختفاء بنوع من الانخفاض والـذل لـه، فعنـد ذكـر الله تعـالىٰ يـذلُّ الشـيطان ويخضـع ويختفـي، ولكـن إذا غفـل العبـد عـن ذكـر الله وسوس له.

فأمر النبي ﷺ العبـد أن يقـول: «**آمنـت بـالله**»؛ فـإن هـذا القـول إيمان، وذكرُ الله يُدفع به ما يضاده من الوسوسة القادحـة في العلـوم الضرورية الفطرية.

وإليك هذا المثال لتتضح المسألة:

قد يوسوس الشيطان إلىٰ المسـلم ويشـككه في علومـه الحسـية الضرورية، مثلا: هل غسل وجهه في وضوئه أم لا؟

فهذا علاجه بـأن يقـول: بلىٰ قـد غسـلت وجهـي، فيثبـت علىٰ الحق ويدفع ما يعارضه من الوسواس، فيرىٰ الشـيطان قوتـه وثباتـه علىٰ الحق، فيندفع عنه.

فيزول الوسواس بالاستعاذة وانتهاء الإنسان عنـه، وقـول: بلىٰ قد غسلت وجهي.

وهكـذا في الشـبهة التـي ناقشـناها في الورقـة: إذا وسـوس لـه الشيطان وقال: إذا آمنـت بـأن الله خـالق الكـون وسـببه، فمـن خلـق الله؟

فيقول: آمنت بالله ويزيل هذه الوسوسة عن نفسه[١].

(١) ينظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣/ ٣٠٧ وما بعدها).

❁ الخاتمة:

في ختام هذه الورقة، قد تبين لنا أن هذا الإشكال الإلحادي (فمن خلق الله؟) ليس في ذاته ما يقيمه، بل هو متناقض من داخله، وأن الأدلة العقلية والشواهد العلمية الحديثة كلها تردُّه، واتَّضح لنا أن الشرع قد بيَّن السلوك الأمثل مع هذه الشبهة.

فالأنفع لكل من وجد شيئًا من هذه الوساوس، أو أُلقي إليه شيء منها ألَّا يتمادىٰ فيها بل ينكرها من أعماق قلبه، ويستعيذ بالله منها، ويتذكَّر أن إيمانه يستند علىٰ أدلَّة وبراهين كثيرة متضافرة قطعية لا شك فيها، ويقول: آمنت بالله كما أمر الرسول ﷺ، وأن لا يتمادىٰ مع الخائضين في الشكوك والسفسطة؛ لأن تلك الخطرات والشكوك لا منتهىٰ لها[1].

(١) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.

قصور العلم التجريبي

السعي الإنساني وراء الأسئلة الوجودية الكبرىٰ من أجل الوصول إلىٰ معرفة حقيقة وجوده سعي فطري ضروري لطبيعته الباحثة عن الغايات، بل هو أخص خصائص الإنسانية، فهو دائما يبحث عن إجابات لأسئلته تلك؛ لماذا نحن هنا؟ من أين جئنا؟ وما مصيرنا؟ لكن؟

لكن يدعي البعض أن "العلم التجريبي هو الوسيلة الوحيدة لتكوين هذه الحقائق"، وهذا الادعاء = يناقض نفسه ذاتيا؛ لأن هذه الجملة نفسها لا يمكن للعلم إثباتها، فكيف نسلم بصحة شيء لا يمكن البرهنة عليه؟ كما أنها توظيف للعلم في غير محله، فالعلم "التجريبي" لا يستطيع إثبات الحقائق الرياضية أو الحقائق الوجودية، كذلك لا يمكنه إثبات الحقائق التاريخية أو الأخلاقية. فمثلا: كيف يمكننا أن نثبت علميًّا عن طريق التجربة وجود أرسطو أو أفلاطون أو غيرهم؟ وكيف يمكننا أن ندلل تجريبيا علىٰ تحريم زنا المحارم؟ أو كيف يمكننا أن نقنع السارق تجريبيا بحرمة السرقة؟...إلخ، كل هذا وغيره من مئات الأمثلة لا ناقة

للعلم التجريبي فيها ولا جمل؛ لأنه ليس معنيًا بها ولا مصمم لها ولا لدراستها، إذ يهتم العلم التجريبي بدراسة الكون ومكوناته والبحث في ظواهره بُغية تفسيرها والسعي لمعرفة أسبابها[١]، وهو أمر طبيعي، لكن لا يمكن للعلم التجريبي البحث فيما وراء الكون وماذا كان قبله، أو ما الغرض من نشأة الكون؟ ولماذا نحن موجودون في هذا الكون؟ مثل هذه الأسئلة الوجودية هي منقطة مُحرمة علىٰ العلم الاقتراب منها كذلك، وليس هذا من أجل ضعف في الإمكانيات أو التكنولوجيا العلمية الحالية والتي قد يتجاوزها العلم مستقبلا؛ ولكن لأن مثل هذه الأسئلة لا علاقة للعلم بها؛ لأنها خارج نطاقه ولا يتعرض لها بأي وجه من الوجوه.

إنَّ العلم الطبيعي مبني أيضا علىٰ بعض الافتراضات، وأحد هذه الافتراضات المهمة: أن قوانين الطبيعة كانت نفسها في الماضي السحيق -ومنذ بلايين السنين- وهي كما هي حتىٰ الآن، فبالفعل لا توجد طريقة لمعرفة صحة هذه النقطة في تاريخنا، ولكن لو كانت هذه القوانين مختلفة.. فإن بعضًا من العلم الطبيعي سيحتاج للمراجعة، وحتىٰ الآن فإن الشك في صحة هذا الافتراض لا يجد دعمًا في المجتمع العلمي، ولكن من المتفق

---

(١) https://spaceplace.nasa.gov/science/en/

عليه والمُغفل عنه: أن العلم الطبيعي يقوم على أقل عدد ممكن من مثل هذه الافتراضات، وهو كذلك... ويؤكد الفيزيائي (جون بولكينجهورن) (*John Polkinghorne*) على أن : "قوانين الفيزياء – كما تعرف عنها الفيزياء الحديثة – لا تملك سمة الاكتفاء الذاتي، ولكن يبدو «بالأخص» أنها تشير لما بعدها للحاجة لمستوى أعلى وأعمق من الوضوح"(١).

كذلك مما يؤيد قصور المنهج العلمي التجريبي وعدم قدرته على الإحاطة الكاملة والوصول إلى الحقيقة المُطلقة = مبدأ عدم التأكد مُبرهنة جودل محدودية الكون:

◈ مبدأ عدم التأكد:

دعنا ننظر في عالم الكوانتم(٢)، نجد في الكوانتم مثلا قانون الثنائية أو الارتيابية فكلها مصطلحات تؤدي إلى غرض واحد، وهو إما أن يتبين لدينا أن الجسيم يمر كموجة أو كجسيم وإما أن نعرف موضعه أو كمية حركته بالضبط، أما أن نعرف حقيقة

---

(١) مصطفى نصر قديح، الصنع المتقن: دلالات الفيزياء على وجود الخالق، مركز دلائل، الرياض، ٢٠١٧م. (ص٢٨١-٢٨٢).

(٢) نظرية الكوانتم طرحت عام ١٩٠٠ م ومؤسسها هو عالم الفيزياء الألماني (ماكس بلانك)، و تعتبر هذه النظرية أهم نظرية في الفيزياء الحديثة بجانب نظرية النسبية (لآينشتاين)..

الأمرين كاملًا فهو شيء مستحيل، وهذا لا يعني أننا متىٰ عرفنا أحد الأمرين -الموضع مثلا- معرفة كاملة أن الشيء الآخر ليس موجودًا -ومن ذلك كمية الحركة مثلًا- بل هو موجود لكننا عاجزين وسنظل عاجزين عن معرفته، وذلك لأن دساتير -قوانين- الفيزياء هذه = حدود معرفتنا المادية التي بها نستكشف الظواهر الموجودة في الكون، وليس لنا من سبيل مادي غيرها(١)، فقوانين الفيزياء الأساسية تمنع أي عالِمٍ مهما كانت ظروفه أو إمكانياته مثالية من الحصول علىٰ معلومات مؤكدة بشكل يقيني. فما يقوم بقياسه يشتمل بشكل طبيعي علىٰ مقدار من عدم الدقة لا يمكنه تجاوزه؛ لأنه قانون طبيعي. وهو ما يعني عدم قدرته علىٰ التنبؤ بحركة الأشياء مستقبلًا بدقة متناهية، فسيظل هناك نسبة ولو صغيرة من عدم التأكد. فالفيزياء علم لا يمكنه أن يعطينا أكثر من تنبؤات إحصائية فقط. ومعنىٰ هذا المبدأ أنه مهما كان الإحكام وتطوير وسائلنا في القياس فلن يمكننا ذلك من التوصل إلىٰ معرفة كاملة للطبيعة من حولنا(٢).

---

(١) https://www.theguardian.com/science/2013/nov/10/what-is-heisenbergs-uncertainty-principle

(٢) Mandelshtam، Leonid؛ Tamm، Igor (1945) "The uncertainty relation between energy and time in nonrelativistic quantum mechanics"، Izv. Akad. Nauk SSSR (ser. Fiz.)، 9: 122–128. English translation: J. Phys. (USSR) 9, 249–254 (1945).

إذًا لدينا قوانين تحكم عالمنا، لكنها محدودة ونتعرف على العالم من خلالها..! وعليه فستظل معرفتنا المعتمدة على هذه القوانين محدودة بحدودها = الحقيقة الكاملة لكي نعلمها تتوقف على شيء آخر خارج عن حدود عالمنا الذي نوجد فيه، متجاوزًا لقوانينه وإطاره المحدود، ومن هُنا نستنتج أن هُناك مصادر أُخرى للمعرفة غير العلم الطبيعي، والعلم الطبيعي أحد هذه المصادر لكنه ليس المصدر الوحيد لتكوين الحقائق، ومن هذه المصادر: الحس والعقل والنقل والتجربة،..إلخ[١]، وبالتالي فحاجتنا لمصادر المعرفة الأخرى هو أمر ضروري؛ حتى تكتمل لدينا الصورة ونصل إلى الحقيقة المطلوبة، والوصول إلى إجابة الأسئلة الأخرى التي عجز عنها العلم التجريبي.

فالعلم التجريبي يساعدنا بقوة في أسئلة كيف؛ كيف تسقط الأشياء على الأرض؟ كيف تعمل آلة ما؟.. لكنه لا يستطيع الإجابة عن أسئلة لماذا، أو الأسئلة الغائية الوجودية، لماذا نحن هنا؟ لماذا خلق الكون؟ ما الغرض من صُنع آلة ما؟...إلخ.

(١) محاضرة الشيخ عبدالله العجيري (مدخل لفهم نظرية المعرفة):
https://www.youtube.com/watch?v=cfUwlQqJ3eA

◊ مُبرهنة (جودل):

يقوم الفكر المادي علىٰ مقدمة أساسية = افتراض أن هذا الكون يمكن تفسير وجوده بمجموعة من القوانين المادية، وهذا أمر مناقض لمبرهنة (جودل) لعدم الاكتمال (*Gödel Incompleteness Theorem*) وتنُص مبرهنة (جودل) علىٰ أنه: "ما من نظام رياضياتي متناسق إلا ويتضمن علىٰ الأقل عبارة رياضية واحدة صحيحة لا يمكن برهنة صحتها. وهو ما يعني عدم وجود نظام رياضي كامل إذا كان متناسقًا، فأي نظرية ستحتوي دائمًا علىٰ أشياءَ لا يمكن إثباتها من داخل النظرية ذاتها"[(١)]، فهي تثبت أن أي نظام (الرياضيات، الفيزياء، الكون...إلخ) لا يمكن أن يثبت من داخله ولا يستطيع أن يكون قائمًا بذاته، ولا يكتمل سوىٰ بانتسابه لغيره، فهو دائمًا يفتقر إلىٰ نقطة خارجه يستمد منها صحته.. بالتالي فلكيٌّ تخرج بنموذج علمي صحيح للكون فإن وجود مؤثر خارجي (أي: خارج حدود الكون) هو أمر ضروري، وبالتالي فمبرهنة (جودل) أكَّدت لنا قصور المنهج العلمي التجريبي وعدم الاكتفاء الذاتي[(٢)].

---

(١) Miskatonic University Press: Gödel's Incompleteness Theorem, Last modified: 14 January 2014. [https://www.miskatonic.org/godel.html]

(٢) https://www.perrymarshall.com/articles/religion/godels-incompleteness-/theorem

◊ كون محدود:

منذ بداية القرن العشرين وحتىٰ لحظتنا هذه والأدلة تزداد يومًا بعد آخر علىٰ محدودية الكون وبدايته، فالكون محدود زمانيًّا ومكانيًّا، ويؤكد هذا العالم الفيزيائي (بول ديفيز) قائلًا: "تشير كل الدلائل إذًا إلىٰ: كون له عمر زمني محدود أتىٰ للوجود في زمن محدد، ويتسم بالنشاط، ولكنه محتمٌ عليه في النهاية بالموت الحراري في مرحلة معينة في المستقبل"[١].

ويترتب علىٰ محدودية الكون قصور الإنسان عن امتلاك طريقة علمية تجريبية تمكنه من الإجابة عن سؤال ماذا كان قبل الكون؟ أو ماذا يوجد خارج الكون؟ فالعلوم التجريبية تتعطل خارج نطاق حدود الكون الزمكانية[٢]، حيث تنهار القوانين الفيزيائية عند بداية الكون ولا يمكنها أن تتعامل مع الحقائق المطلقة، ويصبح إدراك الوجود بشكل حقيقي بناء علىٰ المعطيات التجريبية فقط = أمر مستحيل، فالعلم التجريبي محدود بحدود الكون الزمكانية ولا يمكنه تجاوزها، والاعتماد عليه -وحده- في معرفة الحقائق الكلية أمر يؤدي إلىٰ قصور معرفي... و بالتالي فالمنظومة الكونية لا يمكن أن تُفسر من

---

(١) Paul Davies (1994). The last three minutes: Conjectures about the Ultimate Fate of the Universe. Basic Books. p.18.

(٢) الزمكان: مصطلح فيزيائي منحوت من كلمتي الزمان والمكان، ويُقصد به الفضاء رباعي الأبعاد.

داخلها، وشرط صحة معارفنا = أن يكون معيار المعرفة خارج الإطار الزمكاني للكون.

◊ لا تعارض بين الدين والعلم:

كثيرًا ما يدعي الملحدون أن العلم -التجريبي- يُعارض الدين، بل وقد يتعجب البعض من تمسك المرء بدينه وانشغاله بالعلم في آن..! ولذا فهم يدعون إلىٰ الاقتصار عليه كمصدر معرفي وحيد، لكن هذا أمر نفسي بالمقام الأول ولا وجود حقيقي له في الواقع، ويعترف بذلك الملحد الشهير (لورانس كراوس) في مناظرته مع (حمزة تزورتزتس) والتي كانت بعنوان: الإسلام والإلحاد: أيهما أكثر عقلانية، قائلًا:

"العلم لا يتطلب الإلحاد، والدليل علىٰ ذلك تجريبي وأنا أؤمن بالدليل التجريبي، لدي زملاء علماء وهم غير ملحدين، وبما أنهم علماء ممتازين وغير ملحدين، هذا يعني أن العلم لا يتطلب الإلحاد"[١].

فلم يكن العلم الصحيح معارضًا يومًا للدين الحق علىٰ مر الأزمان، والحضارة الإسلامية وتفوقها العلمي والثقافي لمدة قرون هي خير شاهد علىٰ هذا، فلم يكن للعرب يومًا قيمة بين حضارات الأمم إلا بعد الإسلام، وكان السبب الرئيس لتقدم المسلمين هو تمسكهم بدينهم الذي يدعوهم للتقدم الحضاري والروحي، وما تخلف المسلمون عن ركب الحضارة إلا بعد أن

---

(١) https://www.youtube.com/watch?v=6cbEKmuEwr0&feature=youtu.be

تخلفوا عن التمسك بدينهم كما ينبغي، فالعلم الصحيح يصف الكون الذي خلقه الله، والدين الحق لابد أن يكون من عند خالق الكون، ولا يمكن أن يكون المصدر واحدًا ويوجد تعارض بينهما، فكل اكتشاف علمي جديد عبارة عن كشف إضافي عن النظام الذي وضعه الله في كونه، وإنك إذا درست العلم بالعمق الكافي.. فسيُجبِرُك ذلك على الإيمان بالإله(١).

ويلخص علاقة العلم بالدين العالم الفيزيائي (ماكس بلانك) مؤسس ميكانيكا الكوانتم وحاصل على نوبل في الفيزياء وأحد أكبر علماء القرن العشرين قائلًا:

" لا يُمكن أن يُوجد أبدًا أي تعارض بين الدين والعِلم، بل كل مِنهما مُكملٌ للآخر، وأعتقد أن أي شخص جاد وصادق يُدرك هذا، فأنا أعتقد أن العنصر الإيماني في طبيعته يجب أن يكون معروفًا وراسخًا إذا تكاتفت كل قوى نفس الإنسان في توازن وتناسق تامَّين، وفي الحقيقة ليس مِن الصدفة أن أعظم المفكرين في كل العصور كانوا نفوسًا ذات إيمان عميق"(٢).

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم(٣).

---

(١) مصطفى نصر قديح، الصنع المتقن: دلالات الفيزياء على وجود الخالق، مركز دلائل، الرياض، ٢٠١٧م. ص.٢٨٢- ٢٨٣.

(٢) Planck, Max Karl Ernst Ludwig. (1932).Where is Science Going? (pp. 168). New York, NY: W. W. Norton & Company, Inc

(٣) إعداد: مصطفى نصر قديح.

هَل نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَى الأَنْبِيَاءِ وَوَرَثَتِهِمِ؟

أضحىٰ الإعلام الجديد في زمننا المعلِّم الأوَّل لكثير من شرائح المجتمع، فأينما قلَّبت النظر وجدت متصفِّحًا لها سواءً في الأجهزة المحمولة (الجوال) أو غيرها، فهذا يشاهد نصيحة أرسلها فلان، وذاك يقرأ مقالة كتبها علان، وآخر يقلِّب صورًا، ورابع يردُّ علىٰ قضية، وهكذا.

لم تكن هذه القضيَّة ذا بال لنستفتح بها ورقة علمية، ولكنَّ الأمر الذي أرهقَ المربِّين والمفكِّرين والمعلِّمين أن هذه المواقع غدت منبعًا لبثِّ شبهات وأفكار وآراء تناقض الدِّين وتنقض القيم وتخلخل الأعراف، ومن تلك الأفكار التي تأثَّر بها كثير من الشباب اليوم، التزهيد في الأنبياء، والتهكُّم بميراثهم، والازدراء بورثتهم، والانبهار بتقدُّم الغرب في الصناعة والتكنولوجيا، والسير وراءهم تقليدًا أعمىٰ في كل شئون الحياة!! فصار الأولون يُستدبرون والآخرون يُستقبلون! وظنَّ من ظنَّ منهم أن لا حاجة إلىٰ الأنبياء في عصر التكنولوجيا والتقدُّم كما يزعمون!

ومن هنا كانت هذه الورقة لبيان افتقار البشر إلىٰ النبوة، وضرورتها لحياة البشرية وإلا طُمسوا من الوجود، مع التلميح إلىٰ شيء من أدوارهم العظيمة التي لا يمكن أن يقوم بها غيرهم.

❁ حقيقة المشكلة.

يشغِّب كثيرٌ بالتشكيك في حاجة البشرية إلىٰ النبوة وإلىٰ الأنبياء، وأنه أمر تاريخيٌّ قديمٌ يمكننا اليوم الاستغناء عنه، في وقت لمع فيه نجم العلم التجريبي والصناعي لدىٰ الغرب، ونعقوا نعاق الغربان أن لا حاجة لهم إلىٰ الأنبياء ولا إلىٰ الوحي بعد نيلهم حفنة من أسرار الكون عن طريق العلم التجريبي!!

وضخُّوا قولهم ذلك في وسائل الإعلام ضخًّا، فكان لذلك أثره علىٰ بعض المسلمين المنبهرين بتقدُّمهم الصناعي، وهذا التأثُّر حاصلٌ لدىٰ كثير، وهو وإن لم يصرِّح به بعض النَّاس إلا أن واقع حياتهم وبُعدهم عن ميراث الأنبياء، بل والازدراء بها فضلًا عن إغراقهم في الخضوع لأقوال المشكِّكين، ومعارضتهم لكل شيء بالعقل وإن كان ممَّا لا يستطاع الوصول إلىٰ مثله إلا بخبر النبوة= يُترجم عن هذا الدَّخن الكامن في النفوس، فأضحىٰ التسليم لقول عالم الطبيعة عقلنة، وغدا التسليم لقول الله تعالىٰ ورسوله ﷺ تخلفًا ورجعيةً، وهكذا بدأ التساؤل يطفو علىٰ العقول والأذهان، **هل نحن بحاجة إلىٰ الأنبياء؟**

هل النبوة مسألة عاطفية افتراضية فحسب؟

قبل كل شيء لا بد أن نوقن بأن الإيمان بالنبوة قائم علىٰ أسس عقلية وأدلة منطقية، وليس هو مجرد دعوىٰ عاطفية أو مشاعر روحية أو مسألة افتراضية، وإنما هي قضية منبثقة عن قضية

ضرورية بدهية، وهي الإيمان بالخالق سبحانه، فمن أقرَّ بوجود الخالق، لا بد وأن يسلِّم بالنبوة طردًا وعكسًا وإلا كان متناقضًا في عقله متقلبًا في تفكيره.

فإيماننا بالله تعالىٰ وصفاته وكماله يركن إلىٰ طود شامخ، وأدلة متنوعة متضافرة في العقول والفطر والآفاق والأنفس؛ كدليل الخلق والإيجاد ودليل الإتقان والإحكام وأدلة الفطرة كالمقدمات الفطرية والغرائز الفطرية أيضًا والقيم الأخلاقية والإرادة الغائية[1]، وإذا كانت مسألة النبوة معتمدة علىٰ الإيمان بوجود الله تعالىٰ، **فهل يمكن مناقشة الملاحدة في مسألة النبوة؟**

السلَّم الصحيح للنقاش والتحاور هو طرح مسألة وجود الله أوَّلًا، فالقضية الأساسية الجوهرية التي عليها تُبنىٰ القضايا الأخرىٰ هي إثبات وجود الله تعالىٰ وربوبيته، ثم يتفرع بعد ذلك

---

(١) ينظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣/ ٣٠٣)، وللاستزادة عن أدلة وجود الله ينظر: مقالات أدلة وجود الله الصادرة عن مركز سلف للبحوث والداراسات؛ كالمقدمات الأولية: http://salafcenter.org/522/
والغرائز: http://salafcenter.org/639/
والنزعة الأخلاقية: http://salafcenter.org/548/
والإرادة الغائية: http://salafcenter.org/647/
والإرادة الحرة: http://salafcenter.org/683/

الحديث عن النبوة والرسل وغير ذلك من القضايا الدينية؛ لأن "من لم يعترف بأمر الله لم يعترف بالنبوة قط" كما يقول الغزالي -رحمه الله تعالى-[(١)]؛ ذلك أن "الكلام في النبوة فرع على إثبات الحكمة التي توجب فعل ما تقتضيه الحكمة ويمتنع ما تنفيه" كما يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالى-[(٢)]، وقد حرَّر علماء الإسلام هذه المسألة مذ قرون، يقول الإمام الماوردي -رحمه الله تعالى-: " لا يصح التعبد ببعثة الرسل إلا بعد معرفة المرسِل"[(٣)]، ويقول الإمام القرطبي -رحمه الله تعالى-:" ينبغي لك أن تعرف أن المعجزة لا تكون دليلا إلا في حق من عَلم وجود الباري تعالى وأنه قادر عالم مريد موصوف بصفات الكمال حتى يتأتى منه الإرسال والتصديق والتكليف، وإذا لم يعرف الناظر هذه الأمور بأدلة عقلية لم يعرف المعجزة ولم يفده العلم بالتصديق للنبي"[(٤)].

إذن الإيمان بالنبوة فرع عن الإيمان بالله وبحكمته ﷻ،

(١) معارج القدس (ص ١٣٤).
(٢) النبوات (٢/ ٩١٧).
(٣) أعلام النبوة للماوردي (ص٩).
(٤) الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام للقرطبي (ص ٢٣٩).

وتوضيح ذلك:

أنَّ مَن آمن بوجود الله ﷻ وخَلْقِه الكون، وضَبطِه كل مكوِّن فيه ضبطًا دقيقًا[1] لا بد وأن يُقرَّ بقدرته المطلقة وإرادته التي لا مُمسك لها، وحكمته البالغة ﷻ فهو سبحانه ﴿ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ [الأعلى:١-٤].

وحينئذٍ فلا مانع يمنع من إمكانية النبوة من حيث قدرته سبحانه، كيف وهو الذي خلق السماوات والأرض ومن فيهما، أليس بقادر على أن يُرسل رَسولًا أو ينبِّئَ أحدًا من خلقه؟!

وأيضًا لا مانع من جهة حكمته ﷻ؛ إذ لا يستقيم لدى الحُكماء أن يكون خلق هذا الكون عبثًا أو لعبًا، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۝١١٦﴾ [المؤمنون:١١٥، ١١٦]، بل الحكمة تقتضي ألَّا يكون هذا الصنع المتقن إلا لحكمة وغاية نبيلة؛ كما أخبر الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨﴾ [الدخان: ٣٨]، وهذه الغاية الشريفة هي عبادته ﷻ، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾

---

(١) ينظر: مقال (كون مناسب للحياة) الصادر عن مركز سلف للبحوث والدراسات، وقد سبق في هذه المجموعة.

[الذاريات:٥٦]، وتلك هي أنبل غاية وأكمل علاقة بين الخالق ومخلوقيه[١].

❁ ولكن، كيف السبيل إلى أن يعرف الإنسان هذه الغاية؟!

في واقع الأمر البحث عن الغاية من وجود الإنسان، وسؤال: لماذا نحن هنا؟ من أكثر الأسئلة إلحاحًا علىٰ النفس البشرية الشغوفة بالاطلاع والبحث عن الغايات، ولطالما أشغل هذا السؤال الفلاسفة وأرَّق المفكِّرين، وكان البحث في هذه القضية علىٰ قدم وساق مذ ملايين السنين، **ولكن هل للقدرات البشرية المحدودة إدراك هذه الغاية بنفسها؟**

يُكابر بعض الناس في هذه المسلَّمة وفي كون قدراته محدودة بل وفي حدود ضيقة، عجبًا!! أليست أدوات الإنسان المعرفية محدودة؟ أليس سمعه محدودًا؟ فهو لا يسمع إلا في المدىٰ المسموح له بذلك، ثم متىٰ كان بصرُه خارقًا ليدرك به كل المبصرات؟ بل الإنسان لا يرىٰ ببصره إلا في حدود ضيقة وبشروط معروفة، والحال نفسه مع العقل البشري المحدود، نعم فعقل الإنسان محدود بالمجال الذي وُضع له لا يتجاوزه، والولوج بالعقل إلىٰ الأعماق التي لم يُخلق لها يغرقه في أمواج

(١) ينظر: مقال (إذا كان الله غنيًّا عنا فلم يأمرنا بعبادته؟!) والصادر عن مركز سلف للبحوث والدراسات، وهو المقال اللاحق في هذه المجموعة.

الخرافات والشعوذات، فإذا كانت قدرات الإنسان وملكاته محدودة، ويقرِّر اليوم ما ينقضه غدًا، فكيف له أن يُدرك بنفسه قضية جوهرية مطلقة مثل غاية وجوده وغاية خلق الخلق؟

إذن؛ الإنسان بأدواته المعرفية لا يستطيع الوصول لهذه الغاية وإدراكها، ولكن بعض النَّاس اليوم فُتِن بتقدُّم العلم التجريبي وظنَّ أنه قادر علىٰ تجاوز هذه المسألة، ولذا من المشروع هنا أن نتباحث، **هل العلم التجريبي يملك أدواتٍ مطلقة أم هو الآخر محدود أيضًا؟**

في واقع الأمر لا بد أن يعترف أرباب العلم التجريبي أن علمهم ككل العلوم له حدود يقف عندها، والبحث في الغاية من وجود الإنسان ليست في إطار دراساته؛ إذ العلم التجريبي يُعنىٰ بدراسة الظواهر الكونية وتفسيرها وفقًا لتلك الظواهر، لكن ليس من شأنه البحث في الأسئلة الوجودية الكبرىٰ الشهيرة، والتي من أهمها سؤال: لماذا نحن هنا؟ وما الغاية من وجودنا؟ وإلىٰ أين المصير؟

فالعلم التجريبي لا يستطيع أن يخوض في كل مسألة وإنما له نطاق يبحث فيه، والخروج عن ذلك النطاق يُعد خبطًا وخطَلًا، ولذا فهو في كثير من القضايا يحتاج إلىٰ غيره ولا يمكنه الاكتفاء بنفسه، يقول (جون بولكينجهورن): " قوانين الفيزياء – كما تعرف عنها الفيزياء الحديثة – لا تملك سمة الاكتفاء الذاتي،

ولكن يبدو «بالأخص» أنها تشير لما بعدها للحاجة لمستوىٰ أعلىٰ وأعمق من الوضوح"[١].

وإذا كان الإنسان بمَلَكاته وأدواته العلمية ومعارفه محدودًا قاصرًا، **فمن أين له أن يُدرك غاية وجوده؟**

❁ دلائل الافتقار إلى النبوة:

ليس من الحكمة والعدل أن يُترك الإنسان وأدواته المحدودة ليتيه في بيداء قاحلة، ويصارعَ الآراء المتشعبة والأهواء المتنافرة والعقول المتعاركة بحثًا عن قطرة ماء تُروي تساؤلاته، وتدلُّه علىٰ غاية وجوده.

فمن الضَّروري أن يكون للإنسان مصدرٌ لتعليمه هذه الغاية التي خُلق لها، مصدرٌ يتصف بشمول العلم وإحاطته وعدم تأثره بالظروف والأهواء والميول، وليست هذه الصفات المطلقة إلا لله تعالىٰ الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ:١١]، فكان لا بد من التواصل بين الله والإنسان، وذلك عن طريق رسلٍ يصطفيهم الله تعالىٰ من البشرِ أنفسهم؛ ليكونوا أقرب للاستيعابِ والتصديق، وليُمثِّلوا النموذج الأرقىٰ لتلك الغاية والقدوة الأمثل في قصدها،

---

(١) نقلًا عن: الصنع المتقن لمصطفىٰ نصر قديح (ص٢٨١)، وينظر: مقال: قصور العلم التجريبي، الصادر عن مركز سلف للبحوث والدراسات، وهو المقال السابق في هذه المجموعة.

فالنبوة إذن ضرورة إنسانية لا مناص للبشر عنها.

هذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ لا ينكر أحد أن الإنسان مُيِّز عن غيره من المخلوقات بتسخير السماوات والأرض وما بينهما له وأعطيت له الخلافة والسِّيادة في الكون، وهُيِّأت له الأرض يعمرها ويشيِّد فيها الحضارات، وكُرِّم بحمله في البر والبحر، وخَلقه علىٰ أكمل صورة وأعدل خِلقة، **أَوَيصحُّ في العقل أن يُعتنىٰ به في كل تلك الأمور، ثم لا يُعتنىٰ بإبلاغه غاية وجوده؟!**

فلابد إذن من طريقة يبلِّغهم الله بها غاية إيجادهم في الأرض، وتلكم هي النبوة.

ولنا في الصناعات الحديثة مثَل، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]: انظر إلىٰ أيِّ مصنوع شئت اليوم، ألا ترىٰ كل صانع يرفق صنعته بـ(كتالوج) أو شيء يُوضح غاية ذلك المصنوع وطريقة عمله، ويُعتبر ذلك نوع كمال للصانع، **فالله سبحانه أولىٰ بهذا الكمال.**

وفي هذا الذي قرَّرناه يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الرسالة ضرورية للعباد لا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلىٰ كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، **وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة**

ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:١٢٢]، فهذا وصف المؤمن كان ميتا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان وجعل له نورا يمشي به في الناس. وأما الكافر فميت القلب في الظلمات... **فإن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم وبعثوا جميعا بالدعوة إلىٰ الله وتعريف الطريق الموصل إليه وبيان حالهم بعد الوصول إليه"**، ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الدين ينبني علىٰ ثلاثة أصول: التوحيد والشرائع واليوم الآخر ثم قال: "وعلىٰ هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر والسعادة والفلاح موقوفة عليها ولا سبيل إلىٰ معرفتها إلا من جهة الرسل؛ فإن العقل لا يهتدي إلىٰ تفاصيلها ومعرفة حقائقها وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة؛ كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة إلىٰ الطب ومن يداويه ولا يهتدي إلىٰ تفاصيل المرض وتنزيل الدواء عليه. وحاجةُ العبد إلىٰ الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلىٰ الطب؛ فإن آخر ما يُقدَّر بعدم الطبيب موت الأبدان، وأما إذا لم يَحصُل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه

موتًا لا تُرجىٰ الحياة معه أبدًا أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبدًا، فلا فلاح إلا باتباع الرسول"[١].

والحاجة إلىٰ النبوة ليست مقتصرة علىٰ هذه القضية، بل الإنسان وإن عرف أن عبادة الله تعالىٰ غاية وجوده، يحتاج إلىٰ معرفة الطريقة والمنهج والشرع الذي يُقرِّبه إلىٰ الله، فكيف يتم له ذلك؟

هنا يلوح لنا جانبٌ آخر من جوانب الافتقار والحاجة إلىٰ النبوة والوحي، إذ لا سبيل للبشر بقدراتهم وعلومهم إلىٰ معرفة طرق التقرب إلىٰ الله، بل لا يتحصل ذلك إلا عن طريق الأنبياء، وفي ذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا سبيل إلىٰ السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا علىٰ أيدي الرسل، ولا سبيل إلىٰ معرفة الطيب والخبيث علىٰ التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله البتة إلا علىٰ أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي علىٰ أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدىٰ من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلىٰ روحه والعين إلىٰ نورها والروح إلىٰ حياتها"[٢].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٩/ ٩٣).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٦٩).

والإنسان وإن عُلِّم الغاية والمنهج الذي يسير به إلىٰ ربِّه نظريًّا، فسيبقىٰ مفتقرًا إلىٰ قدوة يقتدي بها ويتعلَّم منها واقعيًّا، وتكون علىٰ أكمل الصور الممكنة في الحياة البشرية، ذلك أن الاقتداء والتأسي غريزة بشرية، فتجد الإنسان يرث صفات من يختلط به ويكنُّ له التقدير كالوالدين، والمعلم، والصديق وغيرهما، فنحن إذن بحاجة ماسَّة لقدوة بلغت الكمال في تحقيق تلك الغاية التي خُلقنا لها، وهؤلاء القدوة هم الأنبياء الذين امتنَّ الله علينا بإرسالهم، يقول ﷻ في نبيِّنا محمدٍ ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم:٤].

وبعد كلِّ هذه الدلائل:

لو حلَّقنا بأنظارنا وتفكَّرنا في كائنين: (خالق ومخلوق)، مخلوقٌ أوجده خالقه بعد عدم، وسخَّر له السماوات والأرض وما فيهما، وذلك الخالق له الكمال المطلق في كل أسمائه وصفاته وأفعاله، فقل لي بربك كيف تكون طبيعة العلاقة بينهما إن لم تكن عبودية الأول للآخر؟!

وإن شئتُ قلتُ: هل هناك علاقة للإنسان المخلوق أشرف من هذه العلاقة؟ أليس الإنسان المخلوق أحوج ما يكون إلىٰ التعلُّق بربِّه وخالقه؟!

فهذه العلاقة ضرورية بالنسبة للإنسان، وإذا كان كذلك **فمن الذي يضع الأنظمة لهذه العلاقة؟ أهو الإنسان نفسه؟**

يا سبحان الله!! أرأيت يومًا من الأيام ملكًا من ملوك الدنيا، يضعُ عبيدُه أنظمةَ ومناهجَ اللقاءات بينهما والجلوس في المجلس الملكي والكلام والاستئذان والخروج؟!! أم أن الملك هو من يحكم في ذلك؟

وكيف يُخوَّل للإنسان وضع أنظمة العلاقة بينه وبين خالقه وهو قاصرٌ عن إدراك النظام الأكمل لعلاقته مع بني جنسه؟! وكثيرًا ما يقرِّر شيئًا ويقوِّم رأيًا ثم ينقض ما كان يراه بالأمس قويمًا، فإن كان الإنسان عاجزًا عن ضبط علاقته بأقرانه من البشر، فكيف يَضبط علاقته بالله؟!

إذن الإنسان بحاجة ملحَّة إلىٰ التعلُّق بربه الذي ليس في الوجود علاقة أكمل منها وأشرف، وإلىٰ أن يضبطَ له خالقه الأنظمة والمناهج لتلك العلاقة؛ لأنه العليم الحكيم الخبير ﷻ، **وطريق إدراك ضوابط تلك العلاقة هم الأنبياء والرسل عليهم السلام.**

ولكن هذه العلاقة الطبيعية بين الإنسان وخالقه مُعرَّضة لأنْ يعتريها ما يشوبها ويعكِّر صفوها؛ لأنَّ الإنسان ليس كسائر المخلوقات، بل هو كثير النسيان كثير الذهول وتُحرِّكه الشهوات والميول والنزوات، ويملك إرادة حُرَّة يتحرك بها، وأيضًا إبليس قد أخذ علىٰ نفسه العهد علىٰ إغواء بني آدم، وحلف وقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ

أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٦، ١٧]، فهذه الأمور تتسبَّب في تحريف الإنسان عن مساره الطبيعي، وهنا تأبىٰ الرحمة الإلهية أن تترك الإنسان وغفلته، **بل يرسل الله** ﷻ ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء:١٦٥].

ولو أن الإنسان لم تكن فيه تلك الصفات التي تحرِّف مساره كحال عامَّة المخلوقات لما احتاج إلىٰ الرسل، ولكن الله كرَّم الإنسان وميَّزه بين خلائقه بأن أعطاه الإرادة الحرَّة حين اختارها، ثم أرسل إليه الرسل وأنزل الكتب يذكروه بذلك العهد والميثاق[1].

هذه صورة من صور الافتقار إلىٰ النبوة وصلْنا إليها بالتفكُّر في حال المخلوق، **ولو نظرنا من جهة كمال حكمة الله ورحمته ستتجلَّىٰ لنا صورة أخرىٰ**.

ذلك أن الحكمة الإلهية تقتضي أن يتفضل الله ﷻ بضبط هذه العلاقة وتيسير سبلها للخلق كلهم.

---

(١) ينظر: مقال الإرادة الحرَّة ووجود الله في موقع مركز سلف للبحوث والدراسات: http://salafcenter.org/683

أليس من الكمال لأيِّ مَلِكٍ في الأرض إن كان محبًّا لمملوكيه أن يبيِّن أنظمة العلاقة بينه وبين مملوكيه، وطريقة الكلام والتحية والجلوس والخروج، وما يحبُّ من ذلك وما يكره؟! بل من الحكمة والعدل أن يفعل ذلك؛ ليتعامل معه أتباعه على ما يريد، ويحاسبهم على ما قرَّر هو أولًا.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠] ﷻ، فالله تعالى أولى بهذا الكمال من المخلوقين، فمن الحكمة أن يبيِّن للناس سبل محبته والتقرب إليه ﷻ حتى يلتزموا بها، وكذلك الأمور التي يكرهها حتى يتجنبوها، ويبلغهم إياها البلاغ المبين، الذي لا يفهمه بليدُهم فضلا عن العقلاء.

وهذا ما حصل فعلًا، فالله ﷻ قد وضع هذا المنهج وبلَّغه إلينا بأقرب الوسائل وأنجع الطرق، **ألا وهم الأنبياء عليهم السلام** الذين هم أرحم وأبلغ وأنصح؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣]، وقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

وبهذا نُدرك أن إرسال الرسل **رحمةٌ للعالمين، وإشفاقٌ على البشرية وحاجتهم الملحَّة وإلا فسدت السماوات والأرض والكون بأسره**، يقول أبو الحسن الندوي: "إن المدنية لا تدين لأي طائفة

من طوائف البشر كما تدين لهذه الطائفة الربانية، إنها تدين لها في حياتها وبقائها، وفي شرفها وكرامتها، وفي اعتدالها وسدادها، فلولاهم -صلى الله عليهم وسلم- لغرقت سفينة الإنسانية بما فيها من علوم، وتراث حضاري، وفلسفة، وحكمة، ولتحولت الأجيال البشرية إلىٰ قطعان من السائبة أو الوحوش، لا تعرف ربًّا، ولا تعرف دينًا ولا خُلقًا، ولا تعرف رحمة ولا محبة، ولا تعرف معنىٰ أسمىٰ وغاية أعلىٰ من العلف والرتع، ومن الماء والكلأ، إن كل ما يوجد في العالم من المعاني الإنسانية الكريمة، والأحاسيس الرقيقة اللطيفة، والأخلاق العالية الفاضلة، والعلوم الصحيحة النافعة، ومن القوة والعزم علىٰ محاربة الباطل والفساد، إنما يرجع فضله وينتهي تاريخه إلىٰ وحي السماء، وتعليمات الأنبياء"[1].

أضف إلى ما سبق أن الإنسان سئُول شغوفٌ لمعرفة مصيره بعد هذه الحياة التي يعيشها، وهذا ما نرىٰ كثيرًا من المؤسسات أيًّا كان نشاطها تستغلُّه، فتُبرز قيَمها ولائحة أنظمتها للموظَّف والمستفيد، وتوضِّح لهم وسائل الترقية في العمل والعقوبات المترتبة علىٰ المخالفات، ذلك أن الإنسان بحَّاثة عن العواقب والمآلات التي يصير إليها بعد ما يقوم به من جهد وعمل، فإذا كان هذا أيضًا نوع كمال في أعمال الخلق، أفلا يكون الخالق أولىٰ به؟

---

(١) النبوة والأنبياء في القرآن لأبي الحسن الندوي (ص ٣٩).

إذن من تمام الحكمة والعدل أن يُبيَّن للناس الجزاء المترتب على الالتزام بالأنظمة والمناهج التي سنَّها الله تعالى والعكس، حتى يكون الناس أكثر تعلقًا بما يقرِّبهم إلى الله ﷻ وأبعد عما يغضبه؛ ولأن الإنسان لا محالة سيحاسب على أعماله وطبيعة علاقته بربِّه، وواقفٌ بين يديه في يوم المصير، فمن كمال العدل أن يلج إلى هذه الأهوال وهو على بيِّنة من أمره، ويعمل ويسعى فيما يوصله إلى مصيره المبتغى، **وبيان تلك العواقب الجزاءات متعذِّر إلا عن طريق الأنبياء والرسل.**

وبيان ذلك من تمام النذارة والبشارة وإقامة الحجة فهؤلاء الأنبياء يرسلهم الله؛ ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

ولنرجع البصر كرة أخرى إلى الإنسان ونتأمل في طبيعة نفسه، هل له أن ينفكَّ عن التعبُّد؟

الشواهد التاريخية والدراسات النفسية والأبحاث الاجتماعية بل وكثيرٌ من فروع العلم التجريبي؛ كعلم الجينات والأعصاب والدماغ يقرر اليوم بأن التعبُّد والتديُّن متجذِّر في الإنسان ومتأصِّل في كيانه، فالإنسان متديِّن بطبعه كما أنه مدنيٌّ بطبعه، وإذا كان كذلك فلا بد من توجيه هذه الخصيصة الإنسانية إلى مسارها، وتوجيهها يكون عن طريق الأنبياء، وإلا خبطَت خبط عشواء،

وتداخلت مع الأغراض والأهواء، كما تشهد لذلك واقع الديانات المحرَّفة بين من يعبُد حجرًا أو شجرًا أو حيوانًا حتىٰ إن منهم من يَعبد الفئران وفروج النساء[١].

إن لم تقنع بعد بحاجتنا إلىٰ النبوة بل افتقارنا لها، فانظر معي في حالك، ألست متطلعًا إلىٰ الكمال في كل شيء؟ أليس الإنسان مفطورًا علىٰ حبِّ الكمال؟ ومتشوِّفًا إليه غاية التشوُّف؟ وكلما ازداد العلو والكمال في شيء ازداد الإنسان به تعلُّقا وإلىٰ معرفته تشوُّفًا.

إذا كنت كذلك فإن الله ﷻ له الكمال المطلق في كلِّ شيء في أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو أعلىٰ وأشرف ما يمكن أن تعرفَه ﷻ، والعاقلُ متطلِّع إلىٰ المصدر الذي انبثقت منه البشريَّة، ومتشوِّفٌ إلىٰ معرفته غاية التشوُّف، ومتعلِّق به حيث كان سببًا في حدوث هذا الكون العظيم والصنع المتقن، وما كانت رحمة الله وعدله ليذرا هذا المطلب الإنساني لتخبُّطات العقل البشري وأدواته القاصرة، **بل تقتضي الحكمة والرحمة الإلهية أن يجعل للعلم به والتعلُّق به طريقًا آمنًا ممهَّدًا للوصول إليه سبحانه، وذلكم هو طريق الأنبياء عليهم السلام.**

---

(١) ينظر: شموع النهار للشيخ عبد الله العجيري (ص ٣٢).

ومما يدلُّ على افتقار الإنسان إلى النبوة أيضًا أن الإنسان أشرف المخلوقات وأكرمها، ويتميَّز بكثير من الخصائص والصفات فهو ذو إرادة حرة، وقصدٍ للكمالات، وبحثٍ عن العلل والغايات، واختلافُ المقاصد والغايات يستلزم بالضرورة اختلاف الأعمال والسلوكيات، ولا بد أن يكون فيها الخير والشر والطيب والخبيث والنافع والضار، **وحينئذٍ نحتاج إلىٰ ميزان نزن به تلك الأعمال ونحكم عليها، فمن أين له ذلك؟**

هل يستطيع الإنسان بعقله أن يفعل ذلك، أنسينا أن العقل البشري محدود بحدود لا يستطيع تجاوزها، ونحن نحتاج إلىٰ علم مطلق يستوعب كل البشرية كما نحتاج إلىٰ عقل متجرد من الأهواء والأغراض ويتسم بالموضوعية، أيمكن أن يكون في البشر من يتصف بهذه الصفات؟

لا بالطبع، فنحن إذن بحاجة إلىٰ ميزان يضعه ذو علم مطلق وموضوعي يستوعب البشرية ولا تؤثر فيه الظروف والأهواء والأغراض، **وهذا لا يكون إلا فيمن له الكمال المطلق** ﷻ، **والاتصال بيننا وبينه متعذِّر إلا عن طريق الأنبياء والرسل عليهم السلام.**

اقرأ قوله تعالىٰ وقد لخَّص هذا المعنىٰ في جملة واحدة: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥].

وعلى هذا نص علماء الإسلام، يقول ابن تيمية: "الرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة؛ فإن الإنسان مضطر إلىٰ الشرع؛ فإنه بين حركتين: حركة يجلب بها ما ينفعه؛ وحركة يدفع بها ما يضره. والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره، والشرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده وحصنه الذي من دخله كان آمنا.

وليس المراد بالشرع التمييز بين الضار والنافع بالحس؛ فإن ذلك يحصل للحيوانات العجم؛ فإن الحمار والجمل يميز به بين الشعير والتراب، بل التمييز بين الأفعال التي تضر فاعلها في معاشه ومعاده؛ كنفع الإيمان والتوحيد؛ والعدل والبر والتصدق والإحسان؛ والأمانة والعفة؛ والشجاعة والحلم؛ والصبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلة الأرحام وبر الوالدين والإحسان إلىٰ المماليك والجار؛ وأداء الحقوق؛ وإخلاص العمل لله والتوكل عليه؛ والاستعانة به والرضا بمواقع القدر به؛ والتسليم لحكمه والانقياد لأمره؛ وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه؛ وخشيته في الغيب والشهادة؛ والتقوىٰ إليه بأداء فرائضه واجتناب محارمه؛ واحتساب الثواب عنده؛ وتصديقه وتصديق رسله في كل ما أخبروا به؛ وطاعته في كل ما أمروا به؛ مما هو نفع وصلاح للعبد في دنياه وآخرته؛ وفي ضد ذلك شقاوته ومضرته في دنياه وآخرته.

ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلىٰ تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد فمن أعظم نعم الله علىٰ عباده وأشرف منة عليهم: أن أرسل إليهم رسله؛ وأنزل عليهم كتبه؛ وبين لهم الصراط المستقيم. ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم، بل أشر حالا منها، فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البرية، ومن ردها وخرج عنها فهو من شر البرية، وأسوأ حالًا من الكلب والخنزير والحيوان البهيم.

وفي الصحيح من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: **«مثل ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وانتفعوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرىٰ إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالىٰ ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدىٰ الله الذي أرسلت به»**[1][2].

(١) صحيح البخاري (٧٩).

(٢) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٩/ ٩٩).

❁ الخاتمة:

في الختام نؤكِّد أن النبوة ليست مجرَّد مسألة عاطفية، وإنما مبنية على أسس وبراهين عقليَّة، ومتدرِّجة على الإيمان بالله ﷻ، فالله ذو الكمال المطلق الخالق لنا ولكوننا ولا بد أن تكون لنا به علاقة، والأنبياء هم من يبيِّنون لنا طبيعة هذه العلاقة وطريقتها وعواقبها، **فالنبوة إذن مطلب إنسانيٌّ ملحٌّ لا مناص للبشر عنه.**

وصلى الله على نبيِّنا محمد وآله وصحبه وسلم[١].

(١) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.

إِذَا كَانَ اللَّهُ غَنِيًّا عَنَّا؛ فَلِمَ يأمُرُنَا بِعِبَادَتِهِ؟

لماذا وُجدنا؟!

وما الغاية من وجودنا في الدنيا؟!

هذه من الأسئلة الملحَّة علىٰ النفس البشرية، والتي حيَّرت الألبَّاء وشغلت الأذكياء في كل مراحل التاريخ، وهو في ذات الوقت من أخطر الأسئلة الوجودية علىٰ الإنسان؛ فكل إرادات الإنسان وحركاته وأفكاره وسلوكياته ستتحوَّر وفقًا للغاية التي يُحددها لوجوده بطبيعة الحال.

ولذا فصَلَ[1] ﷻ وفصَّلَ القول في الغاية من خلْق الخلْق، قال عزَّ من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦]، **فالغاية التي خلق الله من أجلها الخلق، هي عبادته ﷻ**[2].

وهنا يعترض بعضهم فيقول: أليس الله غنيًّا عنَّا فلِمَ يأمرنا بعبادته سبحانه؟

---

(١) يعني: قطع الخلاف فيه.

(٢) فعبادة الله غاية لخلقه لهم وليست علة كما يخطئ بعضهم في التعبير عنه، ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم د.محمد عبدالخالق عضيمة (٢/ ٤٧٢).

نقـول: لـيس معنـىٰ خلقِنـا لعبادتـه أنـه ﷻ محتـاج إلـىٰ عبادتنا ﷻ، بل نحـن المحتـاجون إليـه سبحانه، كمـا قـال تعـالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

فالله ﷻ لا تزيده طاعة الطائعين ولا تنقصه معصية العاصين، كما في الحديث القدسي: «**يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضرِّي فتضرُّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل واحد منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا علىٰ أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئا...**»[(١)].

فليست عبادته سبحانه لحاجته إلىٰ العبادة، وإنما لحاجتنا إليه ﷻ.

وتوضيح ذلك مثلًا: ماذا لو كنت بحاجة إلىٰ مهندس معماري لبناء بيتك، وكنت قد عرفت أن في منطقتك مهندسًا معماريًّا بارعًا لا يُعلىٰ عليه، وآخر مهارته محدودة في الهندسة، وكلاهما يعملان بنفس التكلفة، فأيهما ستختار؟

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٧٧).

حتمًا ستقول الأول لأنه أكمل، وتسلِّم لقوله وتستجيب لطلباته وإن كلَّفك وقتًا ومالًا وجهدًا؛ ذلك أن البحث عن الكمال غريزة بشرية وركيزة أساسية في النفوس.

فكيف بالله ﷻ الذي له الكمال المطلق، في أسمائه وأوصافه وأفعاله سبحانه، فنحن نسلِّم لربنا ومولانا بما اختار لنا، وبالغاية التي بيَّن أنها الحكمة من خلقِه لنا؛ لأنه ﷻ الأكمل، بل له الكمال المطلق في كل شيء، في العلم والقدرة والحكمة، وفي الرحمة والرأفة سبحانه، أفلا نسلِّم لقوله ونذعن لأمره ﷻ؟!

وتأمل قوله ﷻ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه:١٤]، كيف نبَّه على كمال ربوبيته وألوهيته، ثم أمر بعبادته سبحانه.

هذا من جهة، ولو نظرنا من جهة أخرى، فإن من الكمال أن يَظهر أثر صفاته وأفعاله وكمالاته على الخلق ﷻ، ولو كانت المخلوقات كلها تخضع له دون اختيارٍ منها ورغبة لم يظهر ذلك الأثر، فكيف يظهر لنا أثر كمال فضله وكرمه ومحبته إن لم يكن ثمَّة من يُحسن طوعًا من نفسه ويستحق الكرم والفضل؟!

أم كيف يظهر كمال رحمته وحِلمه ومغفرته إن لم يكن ثمَّة من يذنب ويتوب؟!

أم كيف يظهر كمال عدله إن لم يكن ثمَّة من يخطئ؟!

ولذا فإن الله تعالىٰ خلق الخلق لا ينفكُّون عن عبادته وطاعته، بل ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤]، فهم لا يستطيعون غيرها ولا يملكون إلا الانقياد لله تعالىٰ، ولكن الله ميَّز الثقلين عن كل خلائقه، وكرَّمهم بأن أعطاهم حرية الاختيار بين أن يطيعوه أو يعصوه؛ فيعبده الصالحون طوعًا من أنفسهم وطمعًا في فضله وكرمه، ويعصيه غيرهم فيحكم فيهم بعدله سبحانه، فهذا أحد أهمِّ مظاهر الكمالات الإلهية.

وهذه الحرية في الاختيار هي الأمانة التي عرضها علىٰ كل المخلوقات فلم تُطق تحمُّلها، وتفرَّد الإنسان بتحمُّلها كما أخبر الله تعالىٰ عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾ [الأحزاب:٧٢]، يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "الطاعة عرضها عليها قبل أن يعرضها علىٰ آدم، فلم تطقها، فقال لآدم: يا آدم إني قد عرضت الأمانة علىٰ السموات والأرض والجبال فلم تطقها، فهل أنت آخذها بما فيها؟ فقال: يا رب: وما فيها؟ قال: إن أحسنت جُزيت، وإن أسأت عُوقبت، فأخذها آدم فتحمَّلها..."[(١)].

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ٣٣٨).

ولِمَ لا يتحمَّل الإنسان تلك الأمانة وهو يدرك **عظيمَ فضلِ الله تعالىٰ وجزيلَ ثوابه وشرفِ من تحمَّلها عنده سبحانه؟!** وهذا ما يظهره لِحاق الآية: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٣].

وسُئل جعفر الصادق: لِمَ خلق الله الخلق؟ فقال: "لأنَّ الله سبحانه كان محسنًا بما لم يزل فيما لم يزل، إلىٰ ما لم يزل، فأراد ﷻ أن يفوِّض إحسانه إلىٰ خلقه وكان غنيًّا عنهم، لم يخلقهم لجرِّ منفعة، ولا لدفع مضرَّة، ولكن خلقهم وأحسن إليهم وأرسل إليهم الرسل حتَّىٰ يفصلوا بين الحق والباطل، فمن أحسن كافأه بالجنة، ومن عصىٰ كافأه بالنار"[(١)].

وهذا غايةٌ في الكمال أن يعطي خلقًا من خلقه القدرة والاختيار بين الطاعة والمعصية، فيختاروا هم عبادته سبحانه وينالوا عظيم فضله وكرمه ﷻ، دون جبر منه أو إكراه علىٰ عبادته؛ فإن "أمر الله أعظم من أن يُجبِر ويقهَر، ولكن يقضي ويقدر ويخلق ويجبل عبده علىٰ ما أحب"[(٢)].

---

(١) تفسير الثعلبي (٧/ ٦٠).

(٢) مقولة للإمام الزُّبَيدي، رواها الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ ٧٧٥).

ولأجل تحمُّل الإنسانِ الأمانةَ كرَّمه الله علىٰ خلائقه، وفضَّله عليهم، وأسجد له ملائكته، وخصَّه بدخول جنته سبحانه، بل وجعله خليفة يخلفه في الأرض بذلك. يقول ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]: "إني جاعل في الأرض خليفةً منِّي يخلفني في الحكم بين خلقي، وذلك الخليفة هو آدمُ ومن قام مقامه في طاعة الله... وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقِّها فمِن غَير خُلفائِه، ومن غير آدم...لأنه أضاف الإفساد وسفك الدماء بغير حقِّها إلىٰ ذُرِّية خليفته دونه، وأخرج منه خليفته"(١).

وظهور هذا الكمال لله تعالىٰ ليس مفتقرًا إلىٰ وجود الإنسان أو محتاجًا إليه، ولكن كمال المولىٰ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يترتب عليه ظهور آثار كمالاته علىٰ الإنسان من غير حاجة لذلك الإنسان، ألا ترىٰ إلىٰ الشمس كيف يظهر أثر نورها علىٰ الخلق دون حاجة منها لتلك الخلائق؟ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ(٢).

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٥٢).

(٢) شاهد أيضًا محاورات ذاكر نايك:

https://www.youtube.com/watch?v=vxTnPvwOP7Y

https://www.youtube.com/watch?v=a1Z6wErpmHc

وقد يقول قائل: أنا لا أتذكر أني وافقت علىٰ تحمُّل هذه الأمانة التي تزعمها!!

فالجواب أن هذا هو سرُّ الامتحان، فإننا لو كنَّا نتذكَّر ذلك العهد والميثاق المبرم مع ربنا سبحانه لم نكن لنُعرض عن عبادته، ولا فائدة حينئذ من حرية الاختيار، ولم يكن ثمَّة امتحان واختبار؛ لأن حقيقة الاختبار هو في الإيمان بالغيب، فالمتقون هم ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣]، ولو لم يكن الأمر غيبًا لاستجاب الناس كلُّهم لأمر الله ولم يتخلف أحد، تمامًا كما لو كان هناك اختبار من اختبارات الدِّراسة، وسُمح للطلاب بالكشف عن مصدر المعلومات، فسيُجيب الجميع، وأيُّ معنًىٰ للاختبار حينئذ؟!

وعرض تحمُّل الأمانة ذاتُه مظهر من مظاهر كمال رحمته ومغفرته وعفوه ﷻ؛ ذلك أن المخلوق الناقص وإن قَبِل تحمُّل الأمانة فلا شكَّ أنه لن يستطيع أداءها علىٰ وجه الكمال والتمام، بل لا محالة سيحصل منه التقصير ما دام أنه مخلوق ناقص، وهذا ما حصل بالفعل لأبينا آدم عليه السلام بعد تحمُّل الأمانة، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "عُرضت علىٰ آدم [أي الأمانة]، فقال: خذها بما فيها، فإن أطعت غفرت لك، وإن عصيت عذبتك، قال: قد قبلت،

فما كان إلا قدر ما بين العصر إلىٰ الليل من ذلك اليوم حتىٰ أصاب الخطيئة"[١].

وإذا كان التقصير لا محالة حاصل، فإن المؤمن منهم بربِّه والمؤمِّل لعفوه سيتَّجه إليه بالاستغفار والتوبة، فيغفر الله له ويتوب عليه ويجيب دعوته فيظهر كمال عفوه ورحمته، وفي هذا يقول النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم**»[٢].

ومن جهة ثالثة، قل لي بربِّك، ربٌّ هو الملك الخالق الرازق المدبر، بل وخالقنا وموجدنا من العدم، ونحن مخلوقون له ضعفاء فقراء، هذا حالنا وتلك حاله سبحانه، فما هي العلاقة المثلىٰ بيننا وبينه ﷻ؟

لا شكَّ أن الخضوع له والانقياد لأمره هو حيلتنا وهو أفضل حال بيننا وبينه.

ينجلي لنا الأمر أكثر بهذا المثل ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]:

لو أن ملكًا من ملوك الأرض أحسن إلىٰ أهل مِصره وعدَل في حكمه وملكه، فماذا ينبغي أن تكون العلاقة بينه وبينهم؟

---

(١) تفسير الطبري (١٩/ ١٩٧).

(٢) صحيح مسلم (٢٧٤٩).

إن أقلَّ ما يقدَّر هنا هو التقدير والحمد والثناء والتعظيم لهذا الملك، فكيف الحال بالملك الخالق الرازق المدبِّر؟ أليس من المنطقيِّ أن يُؤلَّه ويُعبد ويُذلَّ له ويُخضع؟ وهذا ما يردده القرآن كثيرًا، بل هي فاتحته كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٢-٥]، فالخالق الرازق المدبر هو المستحق للعبادة.

فالله ﷻ لم يأمرنا بالعبادة لحاجته إليها، **بل لأن طبيعة العلاقة بيننا وبينه تقتضي ذلك**، وبهذا تستوعب معنىٰ كونه غنيًّا عن عباده، وكونه لا يرضىٰ لهم الكفر في قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]، فالله غنيٌّ عنا ولا يحتاج لعبادتنا، بل نحن من نحتاج عبادته.

وهل حقًّا نحتاج إلى العبادة؟

دعنا في هذه المرَّة نترك الجواب للعلم الحديث المادي وملاحظاته.

فإن كثيرًا من أرباب العلم التجريبي يقرُّ بأن التعبُّد والتديُّن خاصية أساسية في الإنسان، وبهذا يصرِّح المؤرخون، ومن ذلك المقولة الشهيرة للمؤرخ الإغريقي بلوتارك: "لقد وجدنا في التاريخ مُدُنًا بلا مدارس، ووجدنا في التاريخ مُدُنًا بلا حصون،

ووجـدنا في التـاريخ مُـدُنًا بـلا مستشـفيات، ولكـن مـا وجـدنا في التاريخ مُدُنًا بلا معابد"[١].

ولم يقتصر الأمر في الأمم الغابرة، بل بات فرعًا من فـروع علـم الأعصـاب والـذي أصـبح يعـرف باسـم (Neurotheology)، أي: أعصاب علم اللاهوت!! وهو يسعىٰ للكشـف عـن حقيقـة العلاقـة بين الجهاز العصبي وظاهرة التعبُّد!!

بل بلغ الحال ببعضهم إلىٰ البحـث عـن الجـين المسؤول عـن التعبُّد!! وألَّف في ذلـك العـالم الأمريكـي (ديـن هـامر) كتابًـا سـمَّاه (الجين الإلهي: كيف ضمَّن الإيمان في جيناتنا؟)، وبعضهم يبحث عن سرِّ هذا التديُّن في العقل، كما فعل البروفيسور (كفـن نيلسـون) المختص في علم الأعصاب، وألَّف كتابًا سمَّاه (الدافع لله.. هل تـم تسليك الدين في عقولنا؟)!!

ومهمـا يكـن مـن أمـرٍ، فـإن وجـود هـذه الدراسـات دليـل علـىٰ إيمانهم بتجذُّر وأصالة التعبُّد في الإنسان[٢].

فالتعبُّد في الحقيقة حاجة إنسانية ملحَّة، وليس لله حاجة في ذلك، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران:٩٧].

---

(١) ولذا تجد في تـاريخ البشـر تنـوع هائـل في أنـواع المعبـودات، حتىٰ إن بعضـهم يعبد الحجر والبقر والجرذان!

(٢) ينظر: شموع النهار، للشيخ عبد الله العجيري (ص ٣٢).

ختامًا أيها الإنسان: التعبُّد لله تعالىٰ من مقتضيات الكمال الإلهي أوَّلًا، فضلًا عن كونه مقتضىٰ من مقتضيات خلقه وإيجاده لك، بل أنت أحوج ما تكون إلىٰ عبادته، فهي غريزة في نفسك وفطرتك، فما لك بعيد عن أبواب رحمته وهو يناديك ﷻ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِي وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦] (١)؟!

(١) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.

هَلْ خَلَقَ اللّهُ الكُفَّارَ لِيُعَذِّبَهُم؟!

يحاول كثير من اللادينيين التشكيك في الإسلام وزعزعة الإيمان الكامن في نفوس المسلمين، وذلك بإثارة الإشكالات والمغالطات في المسائل الفرعية، وهذا هو مبلغ جهدهم، فلا أحد يستطيع أو يجرؤ على كبار مسائل أصول الدين؛ كدعوى أن القرآن كذب مثلًا أو خرافة أو عديم القيمة أو ركيك اللغة، أو أن الدين الإسلامي غير متكامل في ذاته، أو غير كافٍ لحل المشكلات، أو لا يلبِّي حاجات ورغبات البشر، بل يندسُّون وراء مسائل فرعية، أو شبهات ملتوية، ويدسُّون هناك سمومهم، وهذا فضلٌ من الله أن حفظ لنا القرآن وحفظ لنا الدين، وكثيرًا ما ترجع إثارة هؤلاء للشبهات بعكس ما راموا، فبإثارتهم للشبه ينصر الله الدين، ويحفظ العلم الشرعي الصحيح، ويظهر القول الحق، والحمد لله.

ومن هذه الشبهات الملتوية، الخاوية عروشها، دعواهم أنَّ خَلق الله للإنسان الكافر مع علمه بأنه سيُعذَّب **منافٍ للرحمة والحكمة والعدل، وغير لائق بالمقام الإلهي**، فكيف يليق بالله

الرحيم العدل أن يخلق خلقًا ويقدِّر له أنه من أهل النار قبل وجوده وقبل عمله؟!

هكذا يثيرون هذه الشبهة، ويركِّبونها من تلك العناصر المتنافرة ويخلطون فيها الخبيث مع الطيِّب، فهم قد ركَّبوا هذه الشبهة من عنصرين منفكَّين، واجتزؤوها من أصلين عظيمين من أصول الإسلام، ألا وهما: **مسألتي القدر الإلهي، وحرية الاختيار الإنساني**، وركَّبوا بينهما تركيبًا متنافرًا ليُخرجوا شبهة متهالكة الجذور خاوية العروش.

وفي هذه الورقة نحاول أن نكشف عوار هذه الشبهة، ونَميز الخبيث من الطيِّب، ونفكِّك كل مسألة من هاتين المسألتين المركَّبتين، ونعرِض الصورة من كلِّ جوانبها، وننظر إليها نظرًا شموليًا دون اجتزاء أفكارها؛ لتظهر الحقيقة ويزول الغبش وينجلي الغبار.

اللهم اجعل عملنا كله صالحًا، ولوجهك خالصًا، وتقبَّله بفضلك يا منَّان يا رحيم.

۞ ۞ ۞

❁ تمهيد:

قبل الخوض في كشف عوار هـذه الشـبهة نحـرر الأصـول التـي توضح لنا ملابسات هـذه القضـية، وتكشـف لنـا عـن حقيقتهـا كمـا وعدنا، فهذا الإشـكال في حقيقتـه **اعتـراض علىٰ قضـاء الله وقـدره،** وإنكـارٌ لكـون الكـافر جانيًـا بكفـره وظالمًـا بفعلـه، **وأنـه إنمـا كفَـر لكونه مجبورًا علىٰ ذلـك، ولـيس كفـره اختيـارًا منـه،** وهنـا سـنحرِّر أصول هذه المسـائل قبـل نقـض تلـك الشـبهة، كمـا يقـال في المثـل (ثبِّت العرش ثمَّ أدر النقش)، وهذه المسائل هي:

١- حقيقة القدر ومراتبه.

٢- حرية الاختيار الإنساني.

❁ حقيقة القدر ومراتبه:

يُخبرنا ربنا تبارك تعالىٰ أنه لا خروج لأي كائن كان عن قضائه وتقديره، فقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩]، وليس هذا فحسب بل قدَّر الله لكل شيء ما يصلحه في هذه الحياة بأعلىٰ مقاييس الدقَّة، فهو سبحانه ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق:٣]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان:٢]، فما أعظمه من إلهٍ ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الأعلىٰ:٢]، و﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلىٰ:٣].

وأخبار الله تعالىٰ الواردة في كتابه يجب علينا الإيمان بها والتصديق الجازم بها، كما أمرنا الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦]، ومقتضىٰ الايمان بالأخبار الواردة في كتابه هو التصديق بها، وهذا التصديق هو مقصِد المصطفىٰ ﷺ بجوابه حين سئل عن الإيمان فقال: «**أن تؤمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[(١)]، وتأخير ذكر القدر هنا ليس تقليلًا من شأنه، بل قد نفىٰ النبي ﷺ أصل الإيمان عمَّن لا يؤمن بالقدر حيث قال ﷺ: «**لا يؤمن عبدٌ حتىٰ يؤمن بالقدر خيره وشره، حتىٰ يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه**»[(٢)]،

---

(١) صحيح مسلم (٨).

(٢) سنن الترمذي (٢١٤٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٤٣٩).

وهذا ما فهمه ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين سُئل عمَّن يرتاب في القدر، فقال للسائل عنهم: "فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحُد ذهبًا فأنفقه ما قبل الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر"(١).

وبهذه النصوص وبقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩] علىٰ وجه الخصوص "يستدلُّ أئمة السنة علىٰ إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل برئها" كما يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ(٢).

فحقيقة الإيمان بالقدر إذن: هو الإيمان بأن الله تعالىٰ قدَّر كلَّ شيء في الأزل، وأنه سبحانه يعلَم كلَّ الحوادث، فيعلم أزمانها وأماكنها وصفاتها، والإيمان بكتابتِه سبحانه لذلك التقدير، ومشِيئتِه لها وإيجادها وخلقها علىٰ حسب ما قدَّر جَلَّ وَعَلَا، **فلا يقع شيء إلا وهو مقدَّر ومكتوب شاءه الله وخلقه**(٣).

---

(١) صحيح مسلم (١).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٤٦).

(٣) ينظر: العقيدة الواسطية لابن تيمية (ص٢١)، شفاء العليل لابن القيم (ص٢٩)، القضاء والقدر للمحمود (ص٤٠).

ولعله بدا لك بعد هذا التفصيل أن القدر أقسامٌ ومراتب، ونقول: نعم أيها القارئ الفطن، **القدر أربعة مراتب**، وهي:

١- **العلم**، والمقصود به: أن يؤمن المسلم بأن الله يحيط علمًا بكل شيء، سواءً الموجودات أو المعدومات أو الممكنات أو المستحيلات، فهو ﷻ يعلم ما كان وما يكون ومالم يكن لو كان كيف يكون؛ فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٧٥﴾ [الأنفال:٧٥]، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام:٥٩]، وإذا كان سبحانه يعلم حركة الجمادات فغيرها أولىٰ، وإذا كان يعلم بالحبَّة في غياهب الظلمات فغيرها أحرىٰ[(١)]، فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٥﴾ [آل عمران:٥]، بل ﴿قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق:١٢].

٢- **الكتابة**، والمراد بها: ما ذكَره النبي ﷺ حيث يقول: « **كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه علىٰ الماء**»[(٢)]، فالله ﷻ كَتَب مقادير كلِّ شيء في اللوح المحفوظ، فما ﴿مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ [هود:٦].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦٠).

(٢) صحيح مسلم (٤٨٠٣).

٣- **المشيئة**، والمقصود بها: الإيمان بأنه لا يحصل شيءٌ إلا بمشيئة الله تعالىٰ وإرادته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فمشيئته ﷻ مطلقة ونافذة، و ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢]، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]، فلا أحد يملك هداية التوفيق إلا الله ﷻ، حتىٰ النبي ﷺ لا يملكها كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص:٥٦].

٤- **الخلق**، والمقصود به: الإيمان بأن ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر:٦٢]، فهو سبحانه ﴿لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف:٥٤]، وهو ﷻ خَلَق كلَّ عامل وعمَله، وكل ساكنٍ وسكُونه كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات:٩٦][(١)].

فالله سبحانه يعلم بالكافر قبل خلقه وإيجاده أنه سيَكفُر، وأنه سيكون من أهل النار ﷻ، وكَتَب ذلك في كتابه المبين، وخلقه وعمَله بمشيئته سبحانه، ولكن **هل معنىٰ ذلك أن الكافر مَجْبور علىٰ كفرِه؟**

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢٢)

❁ حرية الاختيار الإنساني:

نعم نؤمن بأن الله تعالىٰ قدَّر وعَلم وكَتب مقادير الخلائق قبل خلقه، ثم خلقه بمشيئته علىٰ ما كتب وقدَّر، ولكنَّ الله ﷻ لم يكن ليَظلم عباده ويجزِيهم علىٰ ما لا قدرة لهم فيه ولا اختيار، بل الله ﷻ الذي خلقنا؛ كرَّمنا وخصَّنا بخصائص لم تُعط لأحد غيرنا نحن البشر، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء:٧٠]، ومن تلك المكرُمات التي كرَّمنا بها تمييزُنا وتشريفُنا من بين كلِّ الخلائق بحرية الإرادة والاختيار، فبينما تؤوب الخلائق وتخضع الكائنات لله جبلَّة، حيث لا تملك سوىٰ ذلك ولا تملك حرية الاختيار والإرادة في تصرُّفاتها، يتفرَّد الإنسان ويتميَّز بتأليهه وخضوعه الاختياري لربِّه ومولاه وخالقه.

يا لَلَرَّوعة ويا لَلَعظمة!! ما أكملها من صورة متناغمة وكمال متلائم، خلقٌ يعبدون الله طوعًا من أنفسهم في خضمِّ الشهوات والشبهات التي تصرفهم عنها!! وخلقٌ تأخذهم أمواج الفتن والمعاصي يمنةً ويسرةً ثم يؤوبون ويرجعون إلىٰ خالقهم ومولاهم، ويعتصمون به لا يشركون به شيئًا، متناغمين مع كلِّ الخلائق التي تخضع لله جبلَّة وفطرة!

وهـذه هـي الغايـة مـن خلـق الجـن والإنـس، لا حاجـة مـن الله لتلك العبادة؛ وإنما لتتجلىٰ صفات كماله في خلقه(١).

فواعجبًـا مـن كمـال قدرتـه ﷻ؛ الـذي أعطـىٰ عبـاده القـدرة والاختيار؛ ليختاروا هم عبادته سبحانه وينالوا عظيم فضله وكرمه ﷻ، ولم يجعلهم مجبورين علىٰ عبادته؛ فإن "أمر الله أعظم من أن يجبِر ويقهَر، ولكن يقضي ويقدِّر ويخلُق ويجبِل عبده علىٰ ما أحب"(٢).

---

(١) وتوضيح ذلك: أن الإنسان إذا أحسن وآمن أحبَّه الله ورحِمه؛ فظهرت محبته ورحمته، وإن أساء وكفَر جازاه؛ فظهر عدله وحكمته، وإن استغفر غفر له؛ فظهرت مغفرته وعفوه، ولك هذا المثل ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]: تخيَّل لو أن حاكمًا لا يخطئ أحدٌ في مملكته، هل لنا أن نعرف عدلَه؟ ولو كان كلُّ مملوكيه محبوبون إليه لا يُخطئون، فكيف لنا أن نعرف حلمه وعفوه؟ ولله المثل الأعلىٰ، ومما يدل علىٰ هذا الحديث القدسي الذي أورده مسلم في صحيحه برقم (٢٥٧٧) «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل واحد منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أفجر قلب رجل واحد؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئا...».

(٢) مقولة للإمام الزبيدي رواها الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ ٧٧٥).

وهذه الحريَّة الإنسانية الفطرية لا يُنكرها فردٌ عاقلٌ سويُّ الفطرة؛ إذ الكيان الإنساني لا يُتصوَّر خلوه من الإرادة الحرة والشعور الفطري بها، بل ذلك أمر ممتنع؛ لكون الشعور والإرادة من أهم ركائز الحقيقة الإنسانية(١).

وذاك ما تقرُّ به المؤسسات والأمم والشعوب أيضًا، حيث تُسند الأفعال إلىٰ أصحابها وتحمِّلهم كامل المسئولية تجاهها؛ فيُمدح الإنسان ويُذم تبعًا لإرادته وأفعاله، ولا قرار لحياة البشر إلا بهذا الاعتراف؟!

وهذا ما جاء به القرآن، فنجده يسندُ أفعال العباد إلىٰ فاعليها؛ كقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف:٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف:١٤٣]، ويبيَّن للناس الحقَّ من الباطل ويترك لهم حرية الاختيار، ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]، ويعلِّل ﷻ بأن الثواب والعقاب يكون علىٰ حسب العمل، فإن الجزاء من جنس العمل؛ يقول تعالىٰ في أهل الجنة: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة:٢٤]، ويقول تعالىٰ في أهل النار: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: ٤٩، ٥٠]، وأوضحُ من ذلك قوله تعالىٰ:

---

(١) ينظر: درء التعارض لابن تيمية (٨/ ٤٦٤).

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات:٣٧-٤١]، والنصوص القرآنية في هذا المعنىٰ كثير فليُتأمَّل.

وهـذه الحريَّـة في الاختيـار هـي الأمانـة التـي عَرَضـها الله ﷻ ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب:٧٢]، ولم تُطق كل تلك المخلوقات حَمْلَها وثِقَلَها، وقد تفرَّد الإنسان من بين كلِّ تلك الخلائق بقوله: أنا لها، وما ذاك إلَّا تطلُّعًا مِنْه إلىٰ مِنَن الله ومكرماته التي لا تعدُّ ولا تحصىٰ.

وكيف لا يطمعُ في الأكمل وهو مفطور علىٰ حبِّ الكمال، أم كيف لا يطمع في الأكمل وهو يعلم ما أعدَّه الله له من جنَّات الفردوس التي خلقها الله بيده، أم كيف لا يؤوب إلىٰ ربِّه ويخضع وهو خالقه الذي يناديه لعبادته، بل فطرةُ الإنسان نفسه تدعوه إلىٰ تلك العبادة.

وما إن تحمَّل الإنسان هذه الأمانة حتىٰ كرَّمه الله وفضَّله علىٰ المخلوقات، بل جعلها جميعًا مسخَّرةً له، بل أسجد له ملائكته، وخصَّه بدخول جنته سبحانه[1].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢١٦، ٦/ ٤٨٨)، تفسير الثعلبي (٧/ ٦٠)، أضواء البيان للشنقيطي (٥/ ٣٦٣).

وهذا الذي قلناه هو ما صرَّح به القرآن حيث يقول: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب:٧٢].

وليس معنىٰ هذا إنكار خلق الله لأفعال العباد، وإنما نعتقد أن الله خلقنا وأعمالنا حيث أخبرنا تعالىٰ بذلك؛ فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات:٩٦]، ولكن ميَّزنا عن سائر مخلوقاته بالإرادة الحرة، وزودنا بأدوات المعرفة؛ لنعرف سبيل الخير والشر، يقول تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد:٨-١٠]، وفطرنا علىٰ معرفة الطيِّب والخبيث لنختار ما شئنا منهما، كما قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان:٣]، ثم يجازينا ويحاسبنا علىٰ أعمالنا واختياراتنا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس:٧-١٠]، فالعبرة بما يختاره المرء ويريده؛ ولذلك لا يحاسب علىٰ ما أُكرِهَ عليه؛ كما في قصة عمار بن ياسر الذي أنزل الله فيه قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل:١٠٦][(١)].

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٣٥٧)، والبيهقي (٨/ ٢٠٨ وما بعدها)، وصححه الذهبي، وذكر الحافظ ابن حجر اتفاق العلماء علىٰ أنها نزلت في عمار بن ياسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ينظر: الإصابة (٢/ ٥١٢).

إذن لا تناقض بين القول بحرية الإرادة والإيمان بالقدر؛ كما علَّم النبي ﷺ ذلك للصحابة حين استشكلوا هذه المسألة بقوله: «**اعملوا فكلٌّ مُيسَّر لما خُلق له**»، وتلا قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩﴾ [الليل:٥-٩][1].

وبهذا ينجلي لنا انسجام الإيمان بالقضاء والقدر الإلهي مع حرِّية الاختيار الإنساني، وتواؤم الشرع مع القدر، وتوافُق الأمر والخلق، وتناغم الفكر الإسلامي مع الواقع البشري والسلوك الإنساني، وبه تستقرُّ النفوس قبل المجتمعات.

(١) رواه البخاري (٤٩٤٩).

❁ نقض أصول الشبهة:

أظنُّ أننا بالبيان السابق وتجلية ذينك الأصلين أزحنا كثيرًا من الغبش، وانجلىٰ الغبار عن هذه الشبهة، وإن كنت طالبًا المزيدِ من البيان فها نحن نزيدك أيها القارئ العزيز.

اتضح لنا فيما سبق أنَّ الإنسان هو الذي تحمَّل الأمانة وكرَّمه الله بها، وأعطاه حرية الاختيار بين الكفر والإيمان، فهو من يختار لنفسه السبيل، وعلىٰ حسب اختياره يُجازىٰ ويُحاسب، ولا فرق في هذه العطايا بين كافر ومؤمن، بل كلاهما لديه أدوات المعرفة والتمييز والفعل وحرية الإرادة والاختيار، وكلاهما لا يدري عن تقدير الله السابق وعن مصيره، وكلاهما أَمَرهما الله بالعبادة ونهاهما عن المعصية، وساوىٰ بينهما في التذكير والبراهين والأدلة وإرسال الرسل، **فالمؤمن والكافر سواء في هذه الأمور**، وهذا هو كمال العدل الإلهي ﷻ، فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [النساء:٤٠]، ولا سبيل حينئذٍ لنسبة الظُّلم إلىٰ الله تعالىٰ، ومثَل هذا كمَثَلِ معلم عرض علىٰ طلابه أن يختار كل منهم الوقت الذي يناسبه للتعلم، وفي وقت العرض ذاته يَعْلم المعلِّم أن فلانًا من الطلاب سيختار الوقت الفلاني والآخر سيختار الوقت الفلاني، ألا يُعتبر هذا الطالب قد اختار الوقت بكامل حريته وإرادته، ويتحمل علىٰ اختياره ذلك كامل المسئولية؟ وهل يكون المعلم قد سلبهم

حريتهم بسبب علمه وخبرته السابقة فقط؟ وهل يمكن أن يُنسب إليه الظلم لمجرد علمه وخبرته؟ أم من الكَمال علمُه بأحوال تلاميذه؟ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠] فتدبر، فإن الله ﷻ ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق:١٢]، ألا يعلم بحالنا وما نحن إلا خلقٌ من خلقِه؟ أم كيف يغيب عنه حالنا ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:١٦]؟ وفي ذات الوقت لا تعارض بين إحاطة علمه سبحانه وبين عدله سبحانه وإعطاءنا حرية الاختيار ليجازينا على حسب أعمالنا؛ ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

هذا بالنسبة للعدل الإلهي، وأما دعوى أن خلق الكافر منافٍ للرحمة فلا معنى لها؛ لأن صفة الرحمة لا بد أن توضع في مكانها وفي موضعها الصحيح ويُعطاها من يستحقُّها، أما بغير ذلك فلا تسمَّى رحمة، بل ينقلب الحال إلى خورٍ أو ظلم.

إن حال من ينادي بالرَّحمة للكافر كحال مجرمٍ سفَّاح أفَّاك، سفك الدماء وقتل الأبرياء ودمَّر المدن والبلدان، وحين قوضي وحوكم يصرخُ محاميه وينادي بالرحمة والعفو، ويدَّعي أنَّ من يعاقبه على إجرامه ظالمٌ أثيم؟!! ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠] فتفكَّر.

فعدمُ رحمةِ الله تعالىٰ لمن لا يستحقها ليس نقصًا، ورحمةُ من لا يستحق الرحمةَ ليس كمالًا، وإنما تكون الرحمةُ كمالًا إذا كانت في موضِعها.

وكان علىٰ المشكِّك قبل أن ينسب الظُّلم والنَّقص إلىٰ الله تعالىٰ، أن يُثبتَ أن الكافر مستحقٌّ للرحمة، ولكنهم يتجاوزون هذه النقطة، ويقفزون مباشرةً إلىٰ النتيجة طمعًا للتشكيك في كمال الأعلىٰ والأعظم الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ:١١].

ومن جهةٍ أخرىٰ فإن إعطاءَ الإنسان حرية الاختيار يقتضي وجود الخيِّر والشِّرير والمكرَّم والمعاقب، وأما كون الله تعالىٰ قدَّر وعلِم وكَتَب أنه سيكون كافرًا وسيُعذَّب وسيَدخل النار، فهذا لا علاقة له بحرِّية الاختيار الإنساني، فهو لا يَعلم بذلك التقدير السابق، بل لا أحد من الخلق يَعلم ما قدَّره الله، وهذا هو سرُّ الأمانة وسرُّ الامتحان للإنسان؛ إذ إنه لو كان يعلم ما قدَّره الله له لم يكن للامتحان معنىٰ!!

وإليك هذا المثل لتتضح الصورة أكثر: تخيَّل لو أن مدير الجامعة أمر بكشف أوراق الأسئلة في جميع الامتحانات الجامعية، هل يُسمىٰ ذلك الامتحان امتحانًا؟ بل أي معنىٰ لذلك الامتحان الذي لا يخفق فيه أحد؟ ويستوي فيه الطيِّب مع الخبيث؟ ويُكرم فيه الصالح مع الفاسد؟

كذلك الحال لو أدرك الإنسان حقيقة تقدير الله لما كان هناك أيُّ معنىٰ لحريَّة الاختيار تلك، ولو لم يكن من بين الناس صالح وفاسد وتقي وشقي لما كانت لنا أيُّ مكرمة ولا أيُّ ميزة عن الخلائق، ولنُزعت عنَّا الخصيصة التي خصَّنا تعالىٰ بها.

فإيجادُ اللهِ الكافرَ في الحياة مسألةٌ طبيعيَّةٌ مُتَّفِقَةٌ مع طبيعة الحياة الدنيا، بل أمرٌ ضروري لا محيد عنه، ولا تناقض بين خلق الله سبحانه للكافر وعمله وبين كونِ الكافر هو الذي اختار لنفسه الكفر ويتحمَّل جزاء اختياره، كما قال تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨، ٢٩]، والمؤمن مبتلىٰ في هذه الحياة بوجود الكافر، والكافر كذلك ممتحن بوجود المؤمن، وبذلك يستقيم الابتلاء، وفي هذا المعنىٰ يقول الإمام القرطبي وهو يفسِّر قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَ﴾ [الفرقان:٢٠] يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: إن الدنيا دار بلاء وامتحان، فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد فتنةً لبعض علىٰ العموم في جميع الناس مؤمن وكافر، فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغني. ومعنىٰ هذا أن كل واحد مُختبَر بصاحبه، فالغني ممتحن بالفقير، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه، والفقير ممتحن بالغني، عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما علىٰ الحق، كما قال الضحاك في معنىٰ ﴿أَتَصۡبِرُونَ﴾: أي علىٰ الحق.

وأصحاب البلايا يقولون: لِم لَم نعاف؟ والأعمىٰ يقول: لِم لَم أُجعل كالبصير؟ وهكذا صاحب كل آفة"[١].

فالله ﷻ شاء وخلق هذه الطبيعة للابتلاء والامتحان؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف:٧]، ولو شاء الله ما كفر به أحد ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:٩٩].

إذن وجود الخير والشر ضرورةٌ كونية، وخلقُ الكافر وإيجادُه ليس عبثًا أو ترفًا أو مجردُ هوىٰ كما يصوِّر لنا هؤلاء المشكِّكون، بل من وجوده حِكمٌ جليلة لعله ظهر لك بعضها، وهنا نسرد لك شيئًا منها:

١- ظهور كمال قدرته ﷻ علىٰ خلق المتضادات المتقابلات، فالله تعالىٰ الذي خلق الليل والنهار، وخلق الحياة والموت، هو الذي خلق الكافر والمؤمن والشقي والسعيد، فما أعظمه من إله! وما أجله من قوي قادر!

٢- ظهور كمال تدبيره ﷻ حيث خلق الإنسان وأعطاه الحرية في الاختيار، ولم يجعله مجبورًا مقهورًا علىٰ عبادته، وسخَّر له السماوات والأرض؛ ليخرج من البشر من يَعبد الله طوعًا من نفسه، فما أحكمه من إله! بل هو أحكم الحاكمين.

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ١٨).

٣- ظهور كمال قوته وملكوته وجبروته ﷻ، وآثار أسمائه التي تتضمَّن هذه الصفات؛ كالجبار والقهار والمنتقم والعدل وذي البطش الشديد، فهذه الصفات كمالٌ لو وُضعت في موضعها الصحيح، وعومل بها من يستحقُّها، ولولا إعطاء الإنسان حرية الاختيار لما ظهرت تلك الصفات وآثار تلك الأسماء لنا.

٤- ظهور كمال عدله ﷻ، حيث يعامَلُ كلُّ أحد عنده بالعدل سبحانه، ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنعام:٤٨، ٤٩]، ولو كان ذلك المكذِّب ذو نسب أو حسب كحال أبي لهب، ويُحسن سبحانه إلىٰ المحسن ولو كان عبدًا حبشيًّا.

وأيضًا تسويته سبحانه بين كل البشر في أدوات المعرفة والحرية في الاختيار من أكبر دلائل عدله ﷻ.

٥- ظهور كمال حلمه ومغفرته وعفوه، فلو لم يوجد أحدٌ يعذَّب لما ظهر لنا حلمه وعفوه عمَّن يحلم عنه ويعفو عنه، إذ الضدُّ يُعرف بضدِّه، وبضدِّها تتميز الأشياء.

۞ ۞ ۞

❁ الخاتمة:

إلى هنا قد تبيَّن لنا أن هذا اعتراض متهالك الجذور متناقض الفروع، فهو في حقيقته سوءُ فهمٍ لطبيعة الكمال الإلهي، ومحاولةٌ لإخضاعه ﷻ للحالة البشرية الناقصة، ومقارنته ومقايسته بالأحوال الإنسانية، فالله تعالىٰ قد أعطىٰ كل إنسان ما يهتدي به، وهداه النجدين، وأرسل إليهم جميعًا الرسل، وأنزل إليهم الكتب، وأعطىٰ كل واحد منهم أدوات المعرفة والاختيار، ثم كل إنسان منهم يحاسب علىٰ حسب اختياره، وأما عِلم الله تعالىٰ وتقديره بأن الكافر سيكون كافرًا فهذا من كمال إحاطته بكل شيء علمًا، ولا علاقة له بحريَّة اختيار الإنسان، ولا تناقض بين القدر الإلهي والحرية الإنسانية.

وصلىٰ الله علىٰ نبيِّنا محمد وآله وصحبه وسلم[1].

(١) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.

فهرس الموضوعات

الموضوعات	الصفحة
المقدمة	٥
دلالة المُقدِّمَات الأَوَّلِيَّة علىٰ وجود الله	٧
الغَرائِزُ الفطريةُ ووُجودُ الله	١٦
المُتكلِّمُون وفطريَّةُ مَعرفَةِ الله	٢٤
دليل الإبداع والاختراع وجولة مع الملحدين	٣٣
الإتقانُ والإحكامُ ووُجودُ الله تعالىٰ	٤١
كَونٌ مناسبٌ للحياة!..	٥١
الإرادةُ الحرَّة ووُجودُ الله	٦٤
الإرادَةُ الغَائِيةِ ووُجودُ الله	٧١
النَّزعة الأَخلاقيَّة ووُجودُ الله	٧٩
فَمَن خَلَقَ الله؟ مناقشة الشبهة الإلحادية وإبراز كمال المعالجة الشرعية	٩٠
قصور العلم التجريبي	١٢٠
هَل نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ الأَنْبِيَاءِ وَوَرَثَتِهِم؟	١٢٩
إِذَا كَانَ اللهُ غَنيًّا عَنَّا؛ فَلِمَ يأمُرُنَا بِعِبَادَتِه؟	١٥١
هَلْ خَلَقَ اللهُ الكُفَّارَ لِيُعَذِّبَهُم؟!	١٦٢
فهرس الموضوعات	١٨٣